الشيخ والزعيم

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
بناء المسكن
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢
فاكس: ٨١٨٦١٥ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah Publishers

Tel: 319039 - 815112
Fax: (9611) 818615
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon

Email:
resalah@resalah.com

Web Location:
Http://www.resalah.com

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠١م. لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر. ①

الشيخ والزعيم

(مجموعة قصصية)

بقلم
محمد حسن برّيغش

مؤسسة الرسالة
ناشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

القصة فن إسلامي أصيل.

كان عند العرب في جاهليتهم، وأصبح بعد الإسلام فناً تطهّر بآيات الله المنزلة على خاتم الأنبياء والمرسلين، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ [سورة يوسف: ٣]

﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سلف﴾ [سورة طه: ٩٩]

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ [الأعراف: ١٧٦]

ولكن القرون العجفاء، التي نام فيها المسلمون، أنست الناس هذه الحقيقة. وجاءتنا الوفود الصفراء والحمراء والزرقاء لتطمس على العقول والقلوب، وترفع رايات غريبة.

وهكذا كان....

أصبحت القصة فناً غريباً، وأصبح أهله يعبثون به ويفسدون، ورجع إلينا بأثواب أخرى، فيها ألوان وزينة، وبداخلها طعوم وسموم..

وأصبحت لها تقاليد، يصنعها الخبثاء، وأعوان الشيطان، ويفصل أثوابها أصحاب الكيد، وتجار العهر والرذيلة والضلال، وهذه نكبة من النكبات الكثيرة..

أصحاب الرسالة الخاتمة عليهم أن يعودوا إلى النبع الثري الطاهر.

وعليهم أن يأخذوا هذا السبيل بجرأة وقوة وتحرر..

لا يخافون أضواء العبث، ومفاتن الخبث.

ليشقّوا الطريق من جديد في هذا السبيل الطيب، وعلى هدى النبع الأصيل.

ولتعد القصة فناً إسلامياً، رحب الأرجاء، طيب الأنداء..

ذا هدف وقضية، يحمل الكلمة الطيبة، ويسعى بين الناس بالهدى والصلاح.

* * *

معذرة فهذه لا تصلح مقدمة، وما كنت أريد ذلك..

ولكن قبل أن أقدم هذه المجموعة أردت الخروج من دائرة الانفعال بالآخرين.. ومحاولة الاجتهاد في هذا الباب..

قد أكون نجحت .... وقد لا أكون..

ونسأل الله السداد والعون...

همام وطبيب القلب

همام وطبيب القلب

الهواء يملأ كل مكان، والفضاء ـ هنا ـ واسع ممتد، ولكنه ضاق عن صدر همام الذي يستنشق الهواء بصعوبة كأنه لم يعد هناك هواء يكفي لملء صدره المشتعل بالهموم والآلام، كان يشهق بعمق وتتابع، ولكنه لا يحظى بالهواء الكافي لإطفاء ظمئه وضيقه.

نظر إليه الطبيب ـ الماهر ـ الذي جاء لزيارته، بعين إنسانية حانية، ثم سأله عما يعانيه، وراح يتأمل صعود صدره وهبوطه، والصعوبة التي يعانيها همام أثناء الشهيق والزفير، ولكنه كان يفكر بحالة همام، وبمعاناته الداخلية، التي تبدو على وجهه، ثم قال له:

لا بد من ذهابك إلى المستشفى حالاً، لا تحاول التردد، هيا معي لمرافقتك، فأنت بحاجة إلى فحوصات سريعة، ورعاية خاصة.

* * *

سارع الطبيب المناوب، وعدد من الممرضين إلى إجراء بعض الفحوصات لهمام، وسؤاله عما يعانيه.

نظر همام إلى الطبيب المناوب، ثم أجاب:

لا أدري ما بي، ولكنني لم أجد هواءً في هذا الجو لأتنفسه، صدري ثقيل متعب، يشهق بعمق ولكنه لا يحصل إلا على قليل مما يحتاج، أحس بالتعب والألم من هذا الشهيق، صدري مملوءٌ بظمأ، ظمأ حارق، مر!!

وقف الطبيب لحظات يفكر بالذي سيكتبه في سجل هذا المريض ولم يعرف كيف يعبر عما يعانيه المريض، فأعاد السؤال:

لم أفهم ممّ تعاني، ماذا يؤلمك، ماذا تشكو؟

فأعاد همام بصورة مختصرة: لا أستطيع التنفس، صدري ضاق عن استقبال الهواء، كل ما حولي يضيق، ويضغط على صدري.

عاد الطبيب - وهو يشير إلى القلب - وكتب في السجل ما استطاع أن يفهمه من المريض، ثم أعطى بعض التعليمات لرئيس الممرضين، وعاد إلى منضدته.

❋ ❋ ❋

تحوّل سرير همام إلى بؤرة يتجمع حولها عدد من الممرضين والممرضات من بلدان مختلفة، وبدأ كل منهم يؤدي عملاً موكولاً به، ذاك يضع له كمامة يتنفس من خلالها الأوكسجين، والثاني يحقنه في فخذه، والثالث يمسك بيده اليسرى ويبحث عن شريان ليأخذ منه بعض الدم من أجل إرساله للتحليل، و..

ولأول مرة يرى همام نفسه موضع اهتمام الأطباء والممرضين، تتناوشه الأيدي من جميع الأطراف، ولم يكن في مقدوره أن يتكلم، وبدا كأنه يستسلم لأمور لم يألفها من قبل، ثم غاب عن الوعي عندما بدأ الممرض يسحب الدم من شريانه، فأسرع الممرضون لإفاقته، وعندما عاد إلى الوعي، وجد نفسه محمولاً على سرير متنقل، وفي يديه إبر

مغروزة، وأنابيب ممتدة إلى المحاليل التي علقت بحامل متحرك، وسار به المرضون عبر ممرات المستشفى وأجنحتها إلى الجناح الخاص بالعناية الفائقة، وهناك وضعوه على أحد الأسرة في ركن خاص ومدوا الأنابيب والأسلاك إلى الأجهزة التي تملأ المكان..

بدأت الأجهزة تعمل، تضيء، وتنبض، وترسم خطوطاً مستقيمة، ومتعرجة، وكان همام حينها ينظر حواليه وينشغل بالتفكير في هذه الأجهزة التي تحيط به، وتتصل بأسلاك وأنابيب بأطرافه، وصدره..

هدأت الحركة التي كان يراها في قسم الإسعاف، ولم يعد إلا بعض الممرضات والأطباء الذين يراقبون الأجهزة. وكان ذلك فرصة ليمعن فيما حوله:

عجباً!! لقد وصلت إلى غرفة العناية المركّزة؟

ما الذي يحدث في صدري حتى دفعوا بي إلى هنا، وقيدوني بكل هذه الأسلاك والأجهزة؟

ما أضعف الإنسان وأعجزه!! هذا هو - كما هي حالتي - يتجزّأ ويتفتت، ويصبح تفاريق، بل يتحول إلى أعداد، ونقاط متتابعة صماء، ونبضات تلمع في الجهاز، وترتسم خطوطاً، أو نقاطاً، لأنفاسه المتعثرة. الهموم والأفكار، الآمال والأحلام، كل هذا يختفي - هنا - تماماً، ولا يبقى إلا هذه النبضات، والأرقام، والخطوط التي ترصد التنفس، والضغط، والحرارة، وضربات القلب.

أين الماضي والحاضر؟ أين الآمال والأحلام؟ أين الأفراح والأحزان؟ أين المشاغل والمواعيد؟

كل ذلك يختفي، هل تحوَّلتُ إلى هذه النبضات اللامعة؟ أم أنها دفنت إلى الأبد؟

يا الله، الإنسان صغير، ضعيف، أعداد وأرقام متتابعة على لوحة هذا الجهاز، فقط هذه الأرقام والخطوط!!!

وصل الطبيب المعالج، ألقى التحية - مع الابتسام - على همام، وسأله عن صحته، ومدى ارتياحه، وتابع معلقاً: طيب وخير، أنت في تحسّن..

ثم راح يقرأ الأرقام، وينظر في الخطوط، ويسجل ملاحظاته في سجل المريض.

لقد كان حريصاً على إشاعة الطمأنينة والثقة في نفس همام:

أنت بحالة طيبة، كل شيء يسير على ما يرام، والتعب سيزول إن شاء الله خلال أيام قليلة..

أيام، وأنا في هذه الحالة!! ماذا يجري في داخل هذا الجسد؟

ولكن الطبيب قطع على همام تفكيره، وسأله عن عمره، وعمله، وعدد أولاده.

كان همام يجيب، ويُتبع كل جملة من الإجابة بنفس عميق، ويمضي بذهنه بعيداً عبر السنين والأعمال التي مر بها قبل أن يصبح أسير هذا السرير، وكان وجهه يتغضن، ويتغير بين لحظة وأخرى. لاحظ الطبيب ذلك، وكان يصغي بكل أحاسيسه إلى همام، ويحاول فهم ما يجري على صفحة وجهه من علامات وتعبيرات أثناء حديثه مع الطبيب، وإجاباته على أسئلته، فنشأت حالة من الانسجام والمودة بين همام والطبيب

تناول الطبيب السماعة، ووضع طرفها اللاقط على صدر همام وبدأ يصغي لنبضات قلبه، وينقل السماعة من مكان لآخر، ويتوقف في الجانب الأيسر عند موضع القلب، وبدا لهمام أن الطبيب يبحث عن سرٍّ ما، ويصغي ليسمع صوتاً بعيداً لا يكاد يُسمع..

❋ ❋ ❋

شعر همام بشيء من الراحة، وشاعت في نفسه حالة من الطمأنينة والسرور لما وجده من طبيبه الذي بث حوله جواً من الأنس والمودة، ونشأت لدى همام رغبة في التحدث مع الطبيب، لذلك بادره بالسؤال:

هل وجدت قلباً يا دكتور؟ أم أنه اختفى منذ وقت بعيد؟

ضحك الطبيب وأجاب:

اطمئن... وجدته في مكانه تماماً، وجدته كبيراً، ويبدو أنه كبر مع السنوات التي أمضيتها في الحياة، وأنت تملأ فيه كل ما لديك من هموم واهتمامات وآمال وآلام..

● ولكني رأيتك وكأنك لا تكاد تسمعه أو تتلمسه..

● لا، ولكنه الآن وسط غابات كثيفة، وضباب وغيوم ملبدة، وهذا ما جعلني أصغي بدقة لسماع ضرباته المنتظمة، وأتبين ملامح حديثه الخفي..

فرح همام حقاً، هذا الطبيب يعرف لغة الإنسان، ـ عفواً ـ يعرف لغتي، ويصغي بجدٍ لقلبي المتعب، لقد خاطبني بصورة واضحة، وتحدث معي بلغتي التي أفهمها، وتعرّف على نبضات قلبي الحقيقية.

قال همام موجهاً حديثه للطبيب: أعانك الله - يا دكتور - للوصول إلى هذا القلب المتعب، والتعرف إلى ما يحمل ويعاني. منذ مدة وأنا أحمل عبء ما فيه، وأعاني معه ومنه متاعب، ولكن المعاناة عندي تختلف عن أوصافكم وتسمياتكم، أنتم تتحدثون من خلال هذه الأرقام والخطوط، واللمعان والنبضات التي ترتسم على اللوحات الحساسة.

قاطعه الطبيب وقال: لعلك لا تؤمن بجدوى هذه التقنيات التي تساعد المختصين على معرفة المرض، بهدف معاونة الإنسان أو المريض للتخلص مما يعانيه، وتخفيف آلامه، والشفاء من مرضه؟

● لا.. يا دكتور، لست من هؤلاء الذين يجهلون قيمة التقنيات، أو لا يفهمون فائدتها، أو ينكرون استعمالها، فهذا نوع من الكفر والتغاضي عن نعم الله، والإعراض عن الاستفادة منها، ولكنك أشرت إلى نقطة مهمة قد لا يلتفت إليها كثيرون، حين قلت بأنها تقنيات تساعد المختصين على معرفة المرض، أي إنها أدوات لتحقيق غرض ما، وليست غاية بحد ذاتها، وهي لخدمة الإنسان، وليست سيدة له، ولكن بعض الناس جعلها سيدة فوق الإنسان، وفوق القيم، وهي التي توجهه وترسم له طريقه، وتحدد له أهدافه وتفكيره، وتلغي جوانب كثيرة من حياته، أو تحدد حجمها بما يتناسب والآلة. إنها أصبحت عند بعض الناس تتدخل في تشكيل اهتماماته وعواطفه ومشاعره، وتُنحّي القيم الإنسانية جانباً، لأنها لا تخضع للقياس المادي، وعندها يغدو الإنسان أداة بين أسنان الآلة التي لا تعقل، ولا تحس ولا ترحم.

أشار الطبيب لهمام ألا يسترسل في الحديث، وقال له:

أنت متعب، وتحتاج إلى الراحة، قلبك يحمل أثقالاً كثيرة، وهو بحاجة منك إلى نظرة حنوٍ ورحمة.

وتابع قائلاً: أنت تتحدث عن الآلة الصماء التي لا تفهم لغة الإنسان، لا تعرف الصراخ، أو البكاء، والشكوى، ولا تعرف الماضي أو الحاضر، فعليك ألا تقلد الآلة، فترحم قلبك، وترأف به حتى يعود إلى وضعه الصحيح.

● كما تريد يا دكتور، لكنني سعيد بالحديث معك، وأحس بالراحة حينما أجدك تصغي إليَّ، إن هذا الحديث بعض الشكوى من قلبي الذي يحس ويدرك..

كان الطبيب يشفق على مريضه همام، ويرى اندفاعه أثناء الكلام، ويراقب مشاعره الداخلية وهي ترتسم علامات على وجهه، فتتسع حدقته أو تضيق، ويتغضَّن وجهه أو ينبسط، وتتحرك يداه حركات معبرة عن الألم أو القوة، أو اليأس أحياناً..

ولذلك بادره ببعض الأسئلة:

نريد يا همام أن نحصر الحديث في مشكلة قلبك الحاضرة، في الألم الذي تعانيه، والمرض الذي تشكو منه، وأعدك ـ مقدماً ـ ألا أكون وسيلة بيد الآلة، بل سأُنحِّي هذه الآلة جانباً لأصل معك إلى أسباب مرضك، وحين أحتاج إلى الآلة فسوف أستعملها بيد الإنسان، ولن أدعها ـ كما قلت ـ تستخدم يدَ الإنسان لغايتها هي..

كان الارتياح قد بدأ يظهر على وجه همام، وأصبح أكثر استعداداً ورغبة في الإجابة على أسئلة الطبيب والتحدث معه.

● سل ما تريد يا دكتور.. وسأجيبك بكل دقة ووضوح عما تريد.

● هذا جيد، وسنبدأ من الوقت الذي بدأت تشعر به بالتعب والألم.

● الحقيقة يا دكتور لا أستطيع تحديد وقت معين لابتداء تعبي ومرضي هذا، كنت نشيطاً لا أشكو شيئاً، أواصل العمل لساعات طويلة دون كلل، وكان إحساسي بالزمن يفوق ما يعترضني من صعوبات، واهتمامي بأداء الواجب يهوّن عليّ مرور الوقت وأثر التعب.

● سجّل الطبيب في الورقة (السجل الخاص بالمريض) بعض الملاحظات ثم قال له:

● ولكن لا بد من تحديد وقت معين، ولو كان غير دقيق.

● قال همام: ربما كان ذلك منذ أربع أو خمس سنوات، لا أدري بالتحديد، ولكن أتوقع أن ذلك كان من هذه المدة.

● ما الذي جعلك تتوقع هذا الوقت بالذات؟ هل هناك حادثة معينة، أو إشارة تدلك على بداية تعبك؟

● لا يوجد، ولكنني أستدل على هذا بالمحيط العام الذي كنت أعيش وسطه في هذه المدة.

● قال الطبيب: لم أفهم ما تقصد بالمحيط العام يا همام.

● أجابه همام: إذا حاولت تفسير ذلك على طريقتي فسوف تضحك مني وتستغرب يا دكتور، لأنني أعيش بإحساس عميق وحار بأنني واحد من هذه الأمة التي تنزل بها الكوارث وتحيط بها المخاوف والمحن من كل جهة، وكلما مرّ حدث أو وقعت مصيبة، أو سمعتُ خبراً أتفاعل معه، وأشعر بقسط من المسؤولية إزاء ما يحدث، وقد أضجر وأتحرّق وأنا أتابع أخبار الأحداث المرعبة التي تمر كل يوم دون أن يكون في مقدوري فعل شيء.

● سأله الطبيب، خوفاً من الاسترسال في الحديث فقال:

هل أفهم من ذلك أنك تتابع الأخبار والسياسة؟

● لا يا دكتور، إنني أكره السياسة، ولكنني حقاً أتابع الأخبار، وأهتم بأمور المسلمين، وأعيش مع الأحداث هنا وهناك، وقد أشارك أحياناً في نقاش أو ندوة، أو أكتب في صحيفة أو مجلة، أو أتحدث مع الأصدقاء حول ما يصيب المسلمين ويعاني منه الإنسان المعاصر في ظل هذه الحضارة الحديدية القاهرة، وهذا ليس سياسة، إنه اهتمام بالإنسان بهذا المخلوق الذي يكاد ينقرض. ونظر إلى الطبيب الذي يصغي متعجباً ..

ثم تابع الحديث:

أما السياسة ـ كما أراها ـ فهي شيء آخر، أمقته وأخافه، إنها تمثل الكذب والتزوير، ورسم الخطط لخدمة أغراض لا يعرفها إلا القلائل من دهاقنة هذا العصر من السياسيين في العالم، أما الباقون فهم يمارسون السياسة وفق أدوار مرسومة، وفي مسارات محددة، ولهم أجورهم حسبما تهوى نفوسهم من المال والمتاع والشهرة، وحين تنتهي أدوارهم يختفون من على المسرح بطواعية أو كراهية.

السياسة بعيدة عن القيم والحقائق والأخلاق والمبادئ، وأحياناً أراها كالمستنقع القذر، الذي يؤذي الذين يخوضون فيه كيفما تحركوا، ما داموا فيه، تؤذي قيمهم وأخلاقهم وسلوكهم وأذواقهم وحاضرهم ومستقبلهم.. ولذلك أكره السياسة التي قتلت القيم، وسارت لغير صالح الإنسان..

● قاطعه الطبيب قائلاً:

ولكن هذه المتابعة نوع من الاهتمام بالسياسة، وهذا أمر يدعو للتعب، لأن تتبّع الأخبار، وبهذه الصورة الواسعة، سوف يزيد من قلقك، وتعبك، ويؤثر على قلبك وصحتك.

لو كنت تتابع أخبار بلدك، أو الدول العربية والإسلامية على سبيل المثال لكان ذلك مقنعاً، ولكن متابعتك لأخبار الإنسانية، أي كل العالم فهذا سيرهقك أكثر وأكثر..

ولذلك من الخير لك ترك هذه المتابعة، أو الحد منها لكي تخفف عن قلبك هذا العناء..

كان همام مسروراً من اهتمام الطبيب بحديثه وما يحويه من أفكار.

وكان يشعر بالحماس أكثر وأكثر للتحدث رغم ما يبدو من رغبة لدى الطبيب في عدم الاستمرار بالحديث لكي لا يؤثر ذلك على وضع همام، لذلك قال للطبيب:

● اعذرني، واسمح لي أن أوضح هذه الفكرة فقط - إنني أعرف أنك تريدني أن أسكت - حفاظاً على صحتي - ولكنني أحس بالعافية عندما أرى تجاوباً منك أو من غيرك نحو هذه الأمور التي تهمّ كل مسلم، وكل إنسان.

لقد أبديتَ استغرابك في متابعة أخبار الإنسانية، أو العالم، وكأنك لا تشعر بأهمية ذلك، أو ارتباطه بالمسلمين.

والحقيقة - يا دكتور - أن هناك أشياء تبدو في الظاهر أنها خارجة عمّا يهمنا، ولكننا بشيء من التمعّن ندرك علاقتها بنا كمسلمين، وأثرها على مستقبلنا. لا أريد الاسترسال في شرح الفكرة وضرب الأمثلة، ولكن من الواضح جداً أن العالم أصبح متقارباً، والذين يرسمون خطط اليوم، يضعون في أول اهتماماتهم تحقيق مصالحهم، وحماية أتباعهم، وهم غير مسلمين، بل هم - تاريخياً، وواقعياً، وفكرياً - ضد المسلمين، ولذلك يضعون في أول اهتماماتهم شيئاً اسمه الإسلام وصحوة المسلمين، والعالم الإسلامي وما يمتلك من كنوز وخيرات. والمخططات التي تظهر أطراف منها بين حين وآخر، توضح اهتمامهم في السيطرة على العالم الإسلامي ومحاربة المسلمين، والقضاء على كل أمل في نهوضهم، وإتمام صحوتهم. ألا تقرأ الإحصاءات للأموال العربية التي تستثمر في الغرب وأمريكا؟ ألم تسمع بالبلايين التي أذابوها هنا، وابتلعوها أثناء الأزمات؟ ألا تسمع بما يأخذونه من كنوزنا، وما يصدرونه لنا؟ ألا تسمع بالاتفاقات والمباحثات السرية والعلنية التي يجرونها في بلدان العالم الإسلامي لمكافحة الصحوة والقضاء على كل توجه إيجابي نحو تحكيم شرع الله عز وجل؟ ألا ترى الفضائيات التي تستنزف ما بقي فينا من قيم وأخلاق؟

قاطعه الطبيب فجأة قائلاً:

كأنني ألمح لديك تشاؤماً من الواقع والمستقبل؟ إن هذا الشعور بالذات يضغط على أعصابك وقلبك، فيجعلك تحس بالقلق الدائم، والهموم المستمرة، ولذلك دعني أقيس لك الضغط لأتبين، بشكل عملي أثر ذلك على قلبك.

❋ ❋ ❋

كان همام - رغم هذا الوقت الذي أمضاه في الحديث الجاد مع الدكتور - يحسّ بكثير من الراحة والتنفيس، ويشعر بفرح داخلي، وكأنه حقق انتصاراً ما، أو كسب شيئاً جديداً. لقد أعاده هذا الشعور إلى كثير من ذكرياته البعيدة عندما كان يافعاً في المدرسة، يناقش زملاءه، ويتحاور معهم، ويدعوهم للالتزام بالإسلام، والتمسك بآدابه وأخلاقه وقيمه، ونبذ ما عداه. وعندما كان يظفر باقتناع أحدهم، والتزامه بالصلاة، كان يحس بنشوة الفرح والنصر، ويرى أنه أصبح من هؤلاء الذين عناهم حديث رسول الله ﷺ بمن يهتدي على يديه رجل أو رجال...

❋ ❋ ❋

كان همام أحسن حالاً في اليوم الثاني عنه في اليوم الأول، ولكنه عندما زاره أولاده وزوجته رأى على وجوههم شيئاً من الخوف والألم، رغم أنهم حرصوا إلى إظهار الطمأنينة، وكتمان ما يشعرون به..

ورأى أن يطمئنهم، فأخبرهم، بأنه يشعر بكثير من التحسن والراحة وأن صحته جيدة، وأن الطبيب عندما رآه كان مسروراً ومطمئناً، ووعده بالخروج من المستشفى بعد بضعة أيام..

وقبل انتهاء الزيارة، كانوا جميعاً يوصونه بألا يهتم بشيء غير صحته، وأن يريح نفسه من كل الأمور. ثم ودّعوه وذهبوا بعد أن بدأ صوت المذياع الخاص بالمستشفى ينادي على الزوار مذكراً لهم بانتهاء الزيارة.

لقد كانت نظرات همام لأولاده اليوم غيرها بالأمس، كانت تلامس قلوبهم، وتلمس عواطفهم، وتتجلى أكثر وأكثر من مناظرهم، حتى أنه شعر بكثير مما يدور في قلوبهم، ورأى في عيونهم كيف بدأت تترقرق الدموع في أعماقها وهم يهمّون بالخروج.

ماذا كان يحس هؤلاء الأولاد نحوي؟ هل شعروا بالخطر - حقاً - يحيط بي؟

يا الله! ساعدني على اجتياز الأزمة، نحن هنا غرباء، تحيطنا وحشة قاسية، الأولاد ما زالوا كالنباتات التي تنبت في أوعية زجاجية شفافة فوق سطح الأرض، جذورها قصيرة وضعيفة ومكشوفة، أغصانها لا تقوى على مقاومة الريح. هم - يا رب - بعيدون عن الأهل والوطن، الرحم الذي خرجوا جميعاً منها أصبحوا في منأى عنه، مشاعرهم بكماء لا تعرف النطق، ولا تجيد الإفصاح والمخاطبة، يسكن في قلوبهم وجوارحهم الخوف والقلق على الدوام، وبدلاً من تمتعهم بطفولة صافية راغدة، يعيشون دوماً وهم في شك وارتياب وقلق ممن حولهم، لا يحسّون أن الذي يحيط بطفولتهم يكنُّ لهم الود والعطف والصدق، يفتقدون الابتسام والوشائج الصادقة الرحيمة.

يا رب ساعدني على اجتياز الأزمة، دموعهم التي كادت تتهمر منعها الخوف الذي يسكن خلايا كيانهم، إنهم يحسّون برعب ووحشة، يحسّون أنهم على حافة مستقبل يكتنفه الخوف، والوحشة، والغموض.

ساعدهم يا رب، وساعدني، نحن عبيدك الفقراء الضعاف، نحن هنا في الغربة و...

جاء الطبيب لزيارته في الموعد المحدد لتفقد الأطباء لمرضاهم، سلّم على همام بحرارة، وهو يقول له:

طيب، الحمد لله، الحمد لله، أنت أحسن من الأمس بكثير، أرجو أن تكون قد استرحت، ونمت جيداً..

ثم أمسك بالمسماع وراح يتفحص صدر همام، ويستمع إلى نبضات قلبه، ويتعرّف على حرارته وضغطه.

ضغطك مرتفع قليلاً، لكن لا يهم، لأنه لا يشكل أي إزعاج، ونبضات قلبك سريعة بعض الشيء، ولكن وضعك العام أفضل مما كنت عليه البارحة.

● قال همام: الحمد لله، الحمد لله، لا أكتمك يا دكتور أنني أشعر بالطمأنينة والفرح عندما أراك، لقد وثقت بك حتى أصبحت أحسن وكأنك صديق من أعز أصدقائي الذين يعرفون كل أسراري..

● شكراً يا همام، هذا طيبٌ منك، وحسن خلق ومودة فأشكرك على ذلك.

● الأطباء عادة - أو لنقل بعضهم أو أكثرهم - لا يصغون للمريض تماماً، ولا يحاولون الدخول إلى عالمه الداخلي لمعرفة ما يعاني، أو يتخذون الوسائل لاكتشاف آلامه وما يؤثر على صحته وقلبه.

وقد تكون الوسائل سبباً لانغلاق المريض، أو عالمه الداخلي، وهذا سيزيد من آلام المريض، ويطيل مرضه. تصوّر ـ يا دكتور ـ أن أحد الأطباء الذي جاء لزيارتي قال لي: الطبيب ـ اليوم ـ لم يعد بحاجة إلى سماع المريض ـ أو قراءة البيانات، والتحاليل، أو مخططات القلب، الجهاز وحده يضع في نهاية الأمر النتيجة، والطبيب تكفيه نظرة بسيطة إلى الجهاز ليقرّر ما ينبغي عمله.

خاف الطبيب من استرسال همام فقاطعه:

هذا صحيح إلى حد ما، لأن الأجهزة ـ اليوم ـ تقيس أدق التفصيلات والتغيّرات في الجسم، وتصوّرُ أيَّ عضو، وتعطي النتيجة بدقائق قليلة، بينما كنا نحتاج ـ سابقاً ـ إلى ساعات وأيام للوصول إلى هذه النتيجة، مع تخفيض نسبة الخطأ بواسطة الأجهزة الجديدة.

● قال همام: ولكن الأمر ـ يا دكتور ـ يحتاج إلى وقفة ونقاش، ولا أظنك مستعداً لسماع رأيي في ذلك.

● إنني سعيد جداً بحديثك يا همام، وأعدّه مدخلاً مفيداً للوصول إلى سبب مرضك وضعف قلبك، أو ـ كما قلت ـ للدخول من الباب إلى قلبك الكبير الضعيف.

لكن إياك أن تؤثر عليك كلمة الطبيب، أو تعقيبي عليها. فنحن الأطباء نحبّ أن تكون الحقائق واضحة، وسوف نعود إلى التحدث في هذا مرة أخرى إن شاء الله، ولكن دعني الآن أكمل حديثي مع الأجهزة، وإجراء فحص كامل لك، وتسجيل كل البيانات في سجلك الخاص..

واستسلم همام ليد الطبيب ومن معه من الممرضات، وهو يشعر بشيء من الراحة والفرح الداخلي.

وانتهى الطبيب بعد حين، فسلَّم على همام مبتسماً وشد على يديه مودعاً ومضى وهو يقول: سأراك في وقت آخر، وسوف نستأنف الحديث - إن شاء الله - إنني مسرور لتحسّن حالتك، وسماع قلبك وآرائك يا همام...

❋ ❋ ❋

كان الطبيب حائراً، لا يريد الاسترسال في الحديث مع مريضه همام، لأنه يخاف على قلبه وصحته، حيث كان يعاني من ضعف وإرهاق، وضيق في التنفس، وهبوط عام في قواه الجسدية، ولكنه في الوقت ذاته كان يراقب حماسة همام وجديته واهتماماته من خلال حديثه، وكان يُعجب بهذه الأفكار التي يتطرق إليها، فتلامس في قلبه شعوراً بالقبول. وأثناء الحديث مع همام كان يراقب بدقة الأجهزة التي تقيس ضغطه ونبضات قلبه، وحرارة جسمه، فيراها تشير إلى تحسن واضح، بل كانت تبدو على ملامحه المتعبة علامات الإنفراج، وكأنه أثناء هذا الحديث، وتجاوبي معه، وإصغائي له يجد منفذاً يزيح من خلاله شيئاً مما في أعماقه.

وأخذت حالة همام حيزاً كبيراً من اهتمام الطبيب، كان يعود إلى سجله، ويقرأ ما أشارت إليه التحاليل والصور، والتخطيطات بدقة، ويقارن، ويحاول أن يتفهم حالة مريضه التي تتأثر - بدون شك - في الوضع النفسي له.

ولذلك قرر أن يتابع الحديث مع همام، ولكن دون أن يصل به إلى مرحلة التعب والإرهاق، إذ لا بد من الحذر، مع المضي في هذه التجربة إلى نهايتها، لعله يستطيع بهذه الطريقة تجاوز أزمته الصحية، وعلاج الضعف الذي يعانيه.

وبدأ بتنفيذ ما استقر عليه رأيه، فأوصى في تقريره اليومي بنقل همام إلى غرفة خاصة، وأوصى الممرضات بتسجيل ملاحظاتهم عن وضعه الصحي بدقة، وإخباره أولاً بأول عن كل تطور جديد.

لقد أمضى الطبيب ساعة من الزمن وهو يعيد قراءة سجل مريضه وتدوين ملاحظاته، وكتابة توصياته، واسترجع أثناء ذلك ذكريات ماضية عاشها أثناء دراسته في المرحلة الثانوية، ثم الجامعية، كانت هذه الذكريات تتدافع لديه: مشاعر وذكريات لا تكاد تُنسى وسط أعباء العمل الطبي، لقد تذكّر أصدقاء كانت لديهم شفافية في الأحاسيس، وتذكّر آخرين ظلوا بعيدين عن النجاحات المادية لمحافظتهم على كثير من القيم التي نسيها الناس...

وبدأ يحسّ بالقرب من مريضه همام شيئاً فشيئاً، وكانت المسافة التي تفصله عن همام تتضاءل وتختفي تدريجياً، ولم تعد شخصيته المهنية تهيمن على تفكيره، وبدأت الفوارق بينه - كطبيب معالج - وبين مريضه تذوب بسرعة، وبرزت لديه صورة الصديق الذي يمر بأزمة أمام صديقه، ولا بد له - وفاءً - من تقديم كل ما يساعد على استعادة صحته، إنه بعد فترة طويلة من ممارسة مهنته صار يسمع شكوى المريض ويحس بما يعانيه، ولم يستطع أن يتعامل مع همام كأي طبيب يراقب حالة مَرَضية ما بقصد التعرف على أسبابها، وإعادة صاحبها إلى وضعه الطبيعي.

وقد يستخدم الآلات والتحاليل، ولكنها تبقى لديه - كطبيب - مؤشرات عادية تتكرر كل ساعة، وتضبط له أمر المتابعة اللازمة للمريض.

والطبيب عادة، بعد ممارسة مهنته لفترة معينة تتبدل كثير من الأمور لديه، فالأصوات التي ترتفع تعبيراً عن شدة الألم للمرض تصبح أمراً مألوفاً وعادياً عنده، بل تغدو في فترة من الفترات أصوات صماء غير ناطقة مهما تلوّنت، ومهما بلغت حدتها، وأياً كان صاحبها: طفلاً أو امرأة أو شيخاً أو شاباً، كلها أصوات، كما للآلات أصوات عند دوران عجلاتها!!

هذه الصورة الآلية التي تكاد تُخفي صورة الإنسان، والمشاعر، والآلام تبدو في صورة أخرى أمام كثير من الأطباء الغربيين الذين يُستقدمون كخبراء لهذه المستشفيات، وحين يتعاملون مع المريض، لا يعرفون لغته، ولا يحسّون بمدلولات العبارات التي يقولها المريض، ويكتفون بأسئلة تقليدية يترجمها بعض المرافقين للمريض، وبالعكس، ولا أحد يدري مدى قدرة المترجم على فهم ما يقوله المريض، أو الطبيب.. وبالتالي فإن الطبيب يتعامل مع المؤشرات التي تفرزها المختبرات والآلات، ويسجل ملاحظاته، ويحدّد طرق العلاج بهذه الطريقة الآلية. ويشعر المريض بخيبة أمل، ولا تفيد تأوهاته وصراخه في تعديل طريقة العلاج أو الوصول إلى ذهن الطبيب الخبير، الذي لا يكترث لمثل هذه الأشياء ما دامت لديه نتائج التحاليل والصور والمخططات وغيرها.

وكان الدكتور هاشم يخطو ببطء في الممشى الموصل إلى غرفة همام، وهو يفكر في هذه الأمور، وتتصارع داخله آلية المهنة الطبية ومشاعر الإنسان وقيمه..

عالم يتضاءل في إحساسه بعد هذه الرحلة المهنية، وآخر يبدأ في الظهور والإشعاع، عالم رافقه وترك بصماته في مراحل طفولته ومراهقته وشبابه، وشكل كثيراً من قيمه ومشاعره التي كان يتناساها بعد ممارسته للمهنة لسنوات عديدة.

أصوات المرض أصبحت ذات لون آخر، غير ما كان يسمعه قبل أيام. ومريضه همام يختلف عن كثير من المرضى، إنه يدرك بدقة ما يعانيه في عضلة القلب الضعيفة، ولكنه أيضاً يحسّ بما يحمل هذا القلب من أحاسيس ومشاعر إنسانية..

وهمام الذي يحمل هذه العضلة الضعيفة، لا يستطيع أن يستسلم لهذا الضعف، فيكفّ عن التفكير، والانفعال، والغضب، والفرح، والتأثر، إنه يؤمن بالله، ويؤمن بأن قلبه بين يدي خالقه وأنه محاسب عليه، فتراه ينفعل أمام خوفه من ربه، وينسى مرضه القريب، والمعتل، ولعل هذا ما يفسّر علة قلبه. غيره من المرضى يأتي مستسلماً يريد التخلص من الألم الجسدي، لذلك يقف أمام الطبيب باستسلام وانكسار، وكأنه يستغيث الطبيب لكي يعينه على التخلص من الألم، وإبعاد الخطر، وقد يؤدي به هذا الموقف إلى اليأس والإحباط.

مرت في خاطر الدكتور هاشم ذكريات كثيرة، وقفزت صور بعض أصدقائه القدامى الذين كانت لديهم شفافية في الشعور، وثبات على المبدأ، وتمرّد على مفاتن العصر، وراح يتساءل عن مصيرهم، ويحنّ إلى لقائهم.

ولأول مرة ـ منذ أن مارس مهنته الطبية ـ بدأ يفكر بطريقة عمله. وأسلوبه في معالجة مرضاه، ولقد أصبحت صورة همام ترافقه إلى غرفته الخاصة، وإلى منزله، وأصبح يشكل له تحدّياً في عمله الطبي، وفتح ذهنه على أمور جديدة، وصار يتساءل:

نعم، إن هذا الجهاز وغيره، يستطيع أن يحول ضربات القلب إلى رسومات تخضع للنظر والقياس، ولكن إلى أي حد يستطيع أن يكون دقيقاً بحيث يستطيع تسجيل كل ما يحدث داخل هذه العضلة العجيبة، القلب؟

ألا يمكن أن يكون هناك أصوات وإشارات أخرى في القلب تستعصي على التسجيل بواسطة هذه الآلة؟

وهل يستطيع هذا الجهاز أو غيره أن يستوعب جميع العوامل التي تؤثر في التغييرات الحاصلة في هذه العضلة؟

❋ ❋ ❋

لقد أطلق همام على هذه الآلات والوسائل مصطلح عالم الأرقام...

وإذا كان الطبيب لا يوافقه كثيراً على كل ما طرحه من آراء، أو أشار إليه من ملاحظات، ولكنه ـ في الوقت ذاته ـ ترك عند الطبيب كثيراً من التساؤلات التي بقيت موضع تفكير؟

وبدأ الدكتور هاشم إثر ذلك يتذكر بعض الأطباء الذين يتعاملون مع هذه الآلات بثقة مطلقة، ولو تعارضت معطياتها مع شكوى المريض وأقواله، دون أن يتوقف أحدهم للبحث عن سبب هذا التعارض!!

وبقيت بعض كلمات همام تهزّ مشاعر الطبيب، ولا سيما عندما قال له: إنني لا أنكر تقدم العلم، ولا أتنكر له أو أرفضه، بل هو يخدم الإنسان ويساعده حين يُستخدم بشكل صحيح، ولكنني بتّ أرى الإنسان وقد تحوّل إلى أداة بيد العلم، ولم تعد له غاية محددة في تقدم العلم وتطور التقنية!

كان مبضع الجراح حانياً عندما كانت تمسكه يد الإنسان الحكيم المداوي - وأرجو المعذرة - وتحرّكه بين خلايا الإنسان، وتحسّ بإحساس الإنسان، وتتعاطف معه، وتحسّ بقلبه وعقله، وتسعى للتخفيف عن آلامه وكرباته، التماساً للأجر من الله أولاً وقبل كل شيء، ولكن مبضع الجراح اليوم أضحى آلة عمياء تسيّرها آلة لا تحس، وهي تقود يد الإنسان إلى حيث تريد هي، تقطع، وتجرح، ولا تفكر في كل هذه الأمور. المريض جسد، له خريطة، والمبضع يعمل وفق خريطة، ولا حساب لعلاقة هذا الجسد بالإحساس والقيم والمشاعر والإنسانية..

❋ ❋ ❋

قضى همام ليلة هادئة، ونام عدة ساعات نوماً متواصلاً، وأحس بالراحة بعد أرَقِ الأيام التي سبقت دخوله المستشفى، وعندما جاءه الزوار: زوجته وأولاده، وأصدقاؤه، شعر بكثير من الغبطة، ورأوا في وجهه علامات التحسّن.

وكانت هذه الآثار مبعثاً لبعض التعليقات اللطيفة من أصدقائه، ولا سيما صديقه سامي الذي قال له:

لعلك بدأت تكتب قصة، أو تنظم شعراً في هذه الأيام، وحولك وجوه جميلة، وأمور تبعث على الإثارة، ولا شكّ أنك ترى حالات تلفت نظرك عند المرضى أو الأطباء أو الممرضات.

كانت هذه التعليقات التي صدرت بطريقة مازحة موضع اهتمام همام ولذلك علّق على كل ما سمعه ـ وعلى عادته ـ بجدٍ ظاهر:

إنني حقيقة، استفدت في هذه الأيام كثيراً، لأول مرة أنتبه لأمور عديدة، وأفكّر في بعض القضايا التي لم تكن تأخذ اهتماماً عندي من قبل..

البارحة أدرت نقاشاً مع الطبيب، وربما أتعبته قليلاً، لأنه اضطر للإصغاء إلى مريض مشاكس يعرض على الطبيب أفكاراً غريبة ولا يستسلم ليد العلاج بسهولة، ولكنني ـ بحمد الله ـ أحسست أنني استأثرت باهتمامه.

إنه طبيب ممتاز، لديه إحساس إنساني ولديه إيمان، ولذلك أصغى إليّ باهتمام وناقشني، وكان في البداية مجاملاً، وربما متضايقاً، ولكنه في النهاية كان منشرحاً وسعيداً.

لقد طرحت معه موضوع الآلات والعلم والإنسان، وعلاقتها بالمرض، ونظرته للعلم، إنه موضوع حسّاس ومهم، كنت أرى هنا حالات تبعث على الحيرة. تصور أن كثيراً من الأطباء، والممرضات لا يعرفون شيئاً من العربية، ومع ذلك يأتون لمعالجة المريض، ولا يُحضرون معهم مترجماً، حتى عندما يُحضرون المترجم، لا يستطيعون معرفة ما يقوله المريض، ولا يستطيع المترجم نقل شكواهم إلى الطبيب، ويبقى العلاج معتمداً على الأرقام، والرسومات والتحاليل... أين الإنسان؟

الألم لا يقاس بالرقم، كيف يعبّر المريض عن الألم، وكيف يفهم الطبيب ذلك. إنه غلو في الثقة بالآلة؛ لتحتل مكانة الإنسان، وهذا الغلو نابع من هجمة مادية عدوانية على عالمنا البشري، بحيث يود أصحاب المعتقدات المادية الوضعية، إغراقنا بالأشياء والوسائل والآلات، وتضخيم دورها، وتقليل دور الإنسان حتى تصبح الآلة كل شيء، وبالتالي يصبح التنكر للقيم أمراً بدهياً..

تصور يا أخي أن الطفل نعلّمه كيف يستخدم الآلة الحاسبة وغيرها في عمليات الجمع والطرح والضرب والتقسيم، واستخلاص بعض المعلومات، ونفرح بذلك، ويفرح الطفل ـ طبعاً ـ بل نعد ذلك تقدماً، ونحسّ بالفخر والاعتزاز، دون أن يدور في أذهاننا أننا عطّلنا ملكات هذا الطفل، وأوقفنا تفكيره، وذاكرته، حيث يصبح الطفل في غنى عن استخدام هذه الذاكرة لحفظ أبجديات التعلّم، مثل الحروف، والأرقام، وجدول الضرب، والعمليات الأساسية. لقد اكتسب الطفل ـ حقاً ـ مهارة استخدام هذه الآلة، ثم غرق في لذّة التسلية عبر برامج الألعاب، أو الحصول على معلومات ميسرة بدون عناء، وبدون الرجوع إلى مصادرها، فضلاً عن أننا بهذه الطريقة أغرقنا الصغار بعالم الأشياء، والأمور الحياتية الاستهلاكية، ولم يعد لديهم مجال لاستخدام طاقاتهم في معرفة الأمور المعنوية، أو التعامل مع القيم بطريقة عملية عبر السلوك اليومي عن قناعة..

والمثل على ذلك واضح في كل مكان، الطفل يعرف كل أنواع السيارات والألعاب والدراجات، وبرامج التسلية، ويعرف أسماء لا عبي الكرة، والمغنين والمغنيات، والفنانات، وكلمات الأغنيات الجديدة، ويعرف أساليب هواة المغامرات في الوصول إلى أغراضهم، وتحقيق رغباتهم الشيطانية دون اكتراث بالقيم والأخلاق، والمشاعر، والمجتمعات، ويفرح - عادة - الصغار بانتصار البطل مهما كانت أساليبه وطرقه.

لقد أصبحت مقتنيات الشباب تندرج في منظومة المظاهر اللامعة في اللباس، وتصفيف الشعر، واختيار الألوان، واختيار السيارة السريعة الغريبة، وآلة التسجيل الخاصة، والفيديو، والأفلام، وبرامج التسلية... الخ.

آلات حديثة جداً يتعامل معها الطفل وبدون أن يفكر كنهها، وطريقة عملها، وسبب اختراعها، أو هكذا يقول المجتمع، كل هذا لاستغراق وقته، وضياع طاقاته، والعالم حولنا يلهث ناراً وحقداً، ويمتلئ قتلاً وتشريداً للمسلمين، ويلاحق كل ما له علاقة بالإسلام.

ولا وقت عند أجيالنا للتفكير بما يعانيه المسلمون في شتى بقاع العالم، ولا علاقة لمشاعره المترفة، والمترعة بكل المغريات والملهيات بما يقترفه صانعو هذه الألعاب والآلات الحديثة من جرائم ضد الإنسانية، والقيم الرفيعة في العالم.

بل إن الشاب الذي أصبح ماهراً في قيادة أسرع السيارات، وعمل الحركات المريعة، أو الذي يجيد تشغيل الحاسب الآلي في الألعاب، هذا الشاب وأمثاله يعجز عن الإصغاء لبضع دقائق لحديث علمي، أو اجتماعي أو أدبي. الحياة عنده استمتاع وغرق في ما يرضي حسه، ويغذي نوازعه وغرائزه الحيوانية، والبعد عن كل أمر يحول دون حياة الانفلات من القيود.

حياة استهلاكية مادية خالية من المسؤولية، بل عالم من الضياع دون تحديد لهدف معين، عالم الأشياء والماديات الذي يمتاز بالبريق واللمعان والإثارة، لاستهلاك طاقات الأجيال، وهو يزهو بشتى الألوان والأشكال، حتى استولى على ألباب جيل تائه في هذه المغريات..

كان صديقه سامي يصغي إلى حديثه، ويستمتع بهذه الأفكار، ولكنه في الوقت نفسه يخشى عليه من التعب، لذلك علّق على ما سمعه بأسلوب ضاحك:

● من أجل هذا - يا همام - تعب قلبك، مسكين هذا القلب الذي تأخذه معك إلى هذه العوالم الصاخبة، لاشك أن قلبك يا رجل قد امتلأ بآلام من هذه المشاعر الطاحنة.

● أجاب همام:

لا أريد للقلب أن ينفصل عن الإنسان، وحين ينفصل يصبح ميتاً. ولا قيمة عندها للجسد المادي، بل يصبح جيفة تتحرك على وجه الأرض، وتفرز روائح كريهة، وأموراً خبيثة.

فقال له سامي:

إذن كيف يستطيع الطبيب اكتشاف ما في قلبك؟ إنه يحتاج إلى نوع من السحر ليستطيع الدخول إلى هذا القلب وعلاجه. كان الله في عونه، وضحك الجميع.

أجاب همام: لذلك أردت عمل دورة له لكي يتعامل مع القلوب حقاً.

● إذن أنت لست مريضاً، أتيت هنا لتعمل دورات، ماشاء الله!! ولماذا تعذّبنا في زيارتك والسؤال عن صحتك...؟

● يا سامي مثلك يدفع على هذه الدروس الذهب، وكل ما أتيت به باسم الهدية لا يساوي ملاليم، وبإمكاني محاسبتك لأخذ الباقي.

ضحك الجميع، وشاعت البهجة في غرفة همام.

وتنبه سامي إلى الدواء المعلق بجانب سرير همام، وهو يتسرب نقطة فنقطة وينسرب إلى دمه فسأل هماماً:

● هل تبقى هذه معلقة طيلة اليوم؟

● بل تدخل معي إلى الحمام لقضاء الحاجة أيضاً، إنها أصعب عليَّ من جراحة كاملة.

● ما شاء الله أصبحت مثقفاً يا همام، تفهم في الجراحة والطب.

● نعم نعم، لكن لا أريد لك مثل هذه الثقافة عافانا الله وإياك من المرض والبلاء.

❋ ❋ ❋

حرص الطبيب في اليوم التالي لخروج همام من غرفة العناية المركزة إلى غرفة خاصة به على توفير وقت مناسب وكاف عند زيارته لهمام، ولهذا تأخّر في زيارته حتى أتمّ جولته على كافة مرضاه في المستشفى، ثم جاء إلى غرفة همام.

حيّاه ببشاشة، وبادره بالاطمئنان على صحته، وقرأ البيانات المسجلة في سجل المريض، فبدا الارتياح على وجهه.

ثم قام بإجراء الفحص المعتاد عند كل زيارة، ثم قال لهمام:

الحمد لله، أنت أحسن بكثير من الأمس، والأمور جيدة، والتحاليل والصور تشير إلى تحسن كبير، وتدعو للطمأنينة. ولكنك - مع ذلك - بحاجة إلى الراحة، راحة جسدية وفكرية، لا بد من إراحة فكرك وقلبك، لأن ذلك سيؤثر على صحتك، وما دمت مؤمناً وواثقاً بربك، فاترك كثيراً من الأمور لأن الله - عز وجل - سوف يقدر لك الخير، وما لم تتجاوب في هذا الأمر معنا، فالأمر سيطول، والتقدم الذي نراه في يوم، قد ينتكس في يوم آخر..

ابتسم همام وقال: هل هناك راحة أكثر من هذه الراحة؟ خدمة ممتازة، وطبيب صديق ماهر، ووسائل متاحة، وطلبات متوافرة، وأنا على السرير، فمن أين يأتي التعب يا دكتور؟

● ضحك الطبيب، وقال له: هذا صحيح، ولكنني أقصد ما كنا نتحدث عنه البارحة، وعن تأثرك بكل ما تراه وتسمعه.

إنني - بالحقيقة - سعيد بما سمعته منك، وتركتني أعود إلى ذكريات ماضية، ولكن أريد أن تخفف من حدة التأثر. عمق الإيمان

يعطي صاحبه بعداً أكبر، وفسحة أوسع، وأنت مؤمن، فلا بد من إعطاء هذا الإيمان مداه في حسك وسلوكك..

وهأنذا أستفيد من ملاحظاتك الثمينة، وأتعامل مع الآلات من منظور إنساني، فهي تعطيني مؤشرات عن معاناتك، وتومئ لي باضطرام مشاعرك وتفكيرك، وتلفت نظري إلى ضرورة تفهّم وضعك.

والقلب ـ كما تعلم ـ يتحمل أعباء كبيرة تجاه الجسم، وكل ما يدور في ذهن صاحبه. أو يعانيه يؤثر على القلب.

● ما العمل إذن ـ يا دكتور ـ ما دام العالم الداخلي يؤثر على الصحة وعلى عمل القلب.

هل ألغي التفكير، وأهرب من العقل، وأنسى الأمانة والمسؤولية؟ هل أتخلص من الشعور والإحساس، وأتعامى عما أبصر وأصك سمعي عما أسمع؟

إن الواقع ينشب مخالبه في عمق إنسانيتنا، ويمزق كياناتنا، ويستنزف دماءنا، ويغتال كل قيمنا التي تضفي صفة الإنسانية علينا، فهل نستسلم حتى لا نتعب قلوبنا؟

● أجابه الطبيب:

لا... ليس هذا ما أقصده، بل عكس ذلك تماماً، إن العقل الذي يعمل دليل على الوعي والمسؤولية والحيوية، وإن الشعور الذي يتفاعل مع الحياة دليل على إيجابية الحياة، وأصالة القيم التي يحملها صاحب الشعور.

ولكن الذي لا أريده، أن يتحوّل التفكير والشعور هموماً وضيقاً، تؤدي إلى الحصار في زوايا ضيقة، والإحساس بالاختناق، أي يصبح الأمر الإيجابي سلبياً، ورسول الله التفت إلى من كان يطارده وهو في طريقه إلى المدينة المنورة وقال له: ما بالك يا سراقة إذا ألبسك الله سواري كسرى؟ الضيق، والأزمة، كانت سبيلاً للنظرة البعيدة المتفائلة، أما إذا حاصرتنا الهموم فإنها تطفئ شعلة الحياة في أعماقنا..

أشرق وجه همام حقاً، وسمع ـ لأول مرة ـ من طبيب غارق في معالجاته الطبية تشخيصاً لقضايا إنسانية، وتعمقاً في ذات الإنسان، في قيمه وحاضره ومستقبله، فقال له:

● إنك تستدرجني ـ يا دكتور ـ للحديث عما في داخلي، بل تثيرني لكي أكشف أمامك كل ما لدي في أعماقي: في فكري ومشاعري.

● فقال له الطبيب: إن الحديث عن أحاسيسك قد تعين على تخفيف الضغط عن قلبك، وتساعد على انتظام هذه الآلة العجيبة التي تعمل ـ بإصرار ـ دون كلل، مهما كثرت الصعاب حتى آخر لحظة من لحظات العمر المقدر لصاحبها، ولعلنا نتعلم من هذه العضلة الصبورة أشياء كثيرة، إنها لا تكلّ عن العمل والعطاء، ولا تتوقف عن القيام بواجبها وإمداد كل أعضاء الجسم بالغذاء والطاقة، قد يتكاسل هذا العضو، أو ذاك، قد يصاب بالتوقف أو العجز، ولكن كل هذا لا يمنع القلب من مواصلة العمل والعطاء، أثناء يقظة صاحبه أو نومه.

دأب عجيب، وإصرار على العمل والبذل بسخاء أعجب، حتى عندما يخلد الجسد كله للراحة والنوم يبقى القلب يقظاً يعمل بنشاط ويعطي بلا منّة.

بل إذا شعر بأي خطر يداهم عضواً من الأعضاء، يسارع ويبذل أكثر، أليس هذا مثالاً لنا لنفهم الحياة وسنن الكون بطريقة صحيحة؟ ألا تعلمّنا هذه الآلة العجيبة كيف ينبغي أن نواجه الحياة بمصاعبها وأحوالها، ونظلّ نتحمل المسؤولية بثبات، ونؤدي ما علينا دون تأثرٍ يعيق ذلك، نبذل ما ينبغي أن نبذله دون كسل أو منّه، مهما كان المستقبل، لأن المستقبل غيب بيد الله عز وجل، وهو من بين الأقدار التي لا يعلمها إلا الخالق.. وهذا سر الغيب، وأنت أكثر معرفة مني يا همام..

لذا أتمنى ألاّ يتحول التفكير بما حولنا وما يجري إلى مشاعر متضخمة تكبر وتكبر حتى تسد علينا آفاق الأمل، إن الله - عز وجل - لا يحاسب الإنسان على ما يعمله غيره، بل يحاسبه على عمله - هو - فقط.

﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ومن هنا يصبح التفكير إيجابياً حين ينير لنا المستقبل، ويدلنا على الأحسن، ويجنبنا السوء والخطأ والمخاطر.. وقلبك يعمل ويجاهد ليعطي هذا الجسد كل ما يحتاجه، وليمد العقل بالطاقة ليفكر، فساعدْهُ في أداء وظيفته، وخففْ عنه بالتعقّل وعدم الانفعال، وحينها تكون قد أحسنت استخدام العقل بصورة صحيحة. أما الانفعال المحرق مع كل ما تراه وتسمعه، فإنه أمر سلبي لا يتفق مع التفكير السليم.

كان وجه همام يزداد حيوية وإشراقاً وطمأنينة وهو يستمع إلى الطبيب الذي رأى منه إنساناً آخر، أحس بقربه وصداقته، وشعر بأنه فهم ما يعانيه، وأدرك حقيقة أوجاعه، وكانت كلمات الطبيب تزيد من ثقة همام به، وتثيره - من ناحية أخرى - للحديث معه، لذلك غيّر من جلسته، وقال:

سامحني يا دكتور إن أثقلت عليك، وثق أنني أحس بأثر هذا الحديث على عافيتي أكثر من أثر الدواء والمحاليل التي تعطى لي، وإنني متفق معك بكل ما قلته، ولكن للإنسان طاقة على التحمّل، لو نظرنا إلى العالم اليوم لرأينا مشهداً أو مشاهد عجيبة، العالم الحديث يحشد كل طاقاته المادية، والدعائية والفكرية لمحاربة الإنسان في قيمه، وأخلاقه، ومعتقداته، بل ليحارب - بشكل واضح - شريعة الله، كل من ينادي بشرع الله أصبح خطراً على العالم الحديث، وأصبح عمله إرهاباً يقع تحت طائلة القانون..

حرب ضروس، تشويه وإفساد، محاربة للإنسان داخل نفسه وبيته وعمله ومدرسته، وبشتى الوسائل والأسلحة..

مفهوم الإنسان عندهم هو الذي ينأى ويبتعد عن شرع الله ويقترف الآثام والمنكرات باسم الحرية وحقوق الإنسان، فإذا تمسك بالفضائل خرج عن مفهوم الإنسانية التي ينادون بها، وأصبح إرهابياً ينبغي محاربته.

لقد أصبح الذين يتمسّكون بإنسانيتهم التي خلقها الله وكونها يشعرون بالألم والضيق والحصار وهو يزداد قسوة وعنفاً مع الأيام، فكيف لا يتضايق البشر الأسوياء من هذا؟

● ولكن هذا الشعور مبالغ فيه يا همام، فالبشر فيهم الصالح والطالح، والخير والشر، والله - عز وجل - عليم قدير حكيم، فلماذا نخشى من المستقبل؟

● نعم إن الله - عز وجل - عليم حكيم، ولكن الواقع مظلم أيضاً، والحوادث تترى بوتيرة متسارعة نحو الهاوية..

● كن واثقاً بربك، هذه جولة من جولات الباطل، ولولا تعاظم الخير، وقوة الحق، لما شعرت بقوة الهجمة العالمية عليه.

إن الإنسان سينتصر أخيراً بإذن الله ، وماعلينا إلا التمسك بالقيم، والصبر والثبات، ولن يكون ذلك إلا بالطمأنينة إلى وعد الله، والعمل بهدوء وثقة ويقين ومصابرة، وعندها سيثمر العمل..

أما إذا استطاع الباطل أن يمزق وحدة داخلنا ليسلبنا الإرادة، ويشتت قدراتنا، ويمنعنا من التفكير السليم وفق قوانين الله - عز وجل - فإنه يكسب المعركة.

إن الطاقات الخيّرة كبيرة، ولكن غياب العقل الواعي، والإرادة الصلبة والثبات المطمئن يذهب بهذه الطاقات هدراً..

إياك ـ يا همام ـ أن تركن إلى الألم النفسي، إياك أن تترك نفسك لانفعالات جانبية مستمرة متتالية، لأنك حينها تعطل طاقاتك، وتترك هذا القلب عرضة لكل أنواع العداوات.

إنني سعيد جداً بالحديث معك، لقد جعلتني ـ كما قلت ـ أستعيد ذكريات كثيرة حبيبة، وأنتبه إلى جوانب في غاية الأهمية، وأرجو لك شفاءً عاجلاً..

● شعر همام بكثير من الطمأنينة والراحة، وسرى في جسده قوة جديدة، وبدأت الثقة تعود شيئاً فشيئاً، فتنعكس على عافيته.

أجاب همام:

أشكرك يا دكتور، إن الذي قلته صحيح، وإنني فرح جداً لأنني كسبت ـ بسبب مرضي ـ أخاً وصديقاً...

ثم أنهى الطبيب إجراءاته المعتادة، وسجل ملاحظاته في سجل المريض، وكتب لهمام بعض الأدوية والتحاليل..

ثم ودعه وانصرف....

توقفت الآلة الصغيرة

تمدد مستريحاً على الفراش بعد انقضاء يوم من العمل، وكان يحسُّ بالنشاط يملأ جوانبه، وبدا البيت ساكناً بعد أن سكت التلفاز ونام الصغار، لم يعد يسمع إلا أصوات السيارات العابرة ومزاميرها المزعجة، كل شيء مريح مريح وجميل في هذا البيت لولا هذه الأبواق:

- الزوجة: شريكة وفية، ورفيقة أحلام، وعطر أمل وبسمة حنان يغمرني ويحيطني بالحب، ويعينني على تدابير الحياة.

- الأطفال: ورود وثمار، جعلوني أرى المستقبل أكثر انفساحاً ورحابة وجمالاً.

- البيت: غاية في الأناقة والترتيب، والذوق والفن، والجمال.

- المستقبل: ستكتمل هذه المشاريع وتنتهي، وأكون قد حققت كل آمالي في بيت، ومورد جديد، ووفر جيد، وأشياء كثيرة.

❋ ❋ ❋

البيت يطل على هذا الشارع المزدحم، وراكبو السيارات العصرية ينسون أن الناس يستريحون في بيوتهم، وينبغي أن لا ينغّصَ عليهم أحد حياتهم، ولا سيما بعد منتصف الليل بالأبواق وأصوات العجلات المجنونة.

قطعت الزوجة رحلة زوجها هذه فقالت:

● «هل انتهيت من تخطيط الإجازة الانتصافية، أم ما زلت غارقاً في مخططات الأبنية والمشاريع والعمارات»؟

عشرة مخططات ضخمة.... واثنان متوسطان لمشاريع كبيرة تحمل في طياتها أحلاماً تفوق جمال الألوان وعذوبة الموسيقى، مرت في خياله عندما سمع صوت زوجته:

هذه مساحتها... ألف..... طولها.... عرضها. إنها تحتاج إلى... ألف طن من الحديد. أما الإسمنت... و..... وذاك المشروع..... والثالث..... والعاشر.

نسيت بعض الضرورات في غرف النوم، أمكنة للعرض السينمائي، والفيديو. هناك أشياء عصرية يجب أن لا أنساها... وكاد ينسى سؤال زوجته في لُجّة هذه الأحلام، ولكنه تدارك نفسه وأجاب:

● «نعم، هيأت كل شيء - مع أن عملي كثير - وأشغالي تتزايد يا سلوى، الطموح هو المستقبل - لا تغضبي.. يجب أن لا ندع الريح تمرُّ ونحن ساكنون هذه المخططات العمرانية من أجل مستقبلكم».

● «دعنا من ذلك وقل لي، أين اخترت قضاء الإجازة»؟

● أجابها: «أفضل أن نذهب إلى الشاطئ، الجوّ جميل في هذه الأيام، ونعرّج على (الخُبر)، ونجلس يوماً في الدمام، ونزور صديقنا باسم وقريبنا عثمان، ليت الإجازة أطول، لأنني كنت أريد زيارة اليابان والدانمرك، ولكن الأسبوع لا يكفي، ولذلك سنقضيه هنا».

❋ ❋ ❋

العمارة الأولى: سيبدأ العمل بها بعد أسبوعين، لا بد من إنهاء المخططات، وما طرأ عليها من إضافات لتحقيق رغبة صاحبها.

ومخطط مجموعة «الفلل» رقم ـ ١٨ ـ لا بد من تسليم مخططاتها بعد التصديق عليها من المكتب و... و....

كان الطريق إلى الإجازة شائكاً، لا بد أن يبدأ من مجموعات كبيرة من المخططات والأحلام، ثم بعدها يبحث عن نفسه لكي يستجمّ في الإجازة.

ولم تتركه زوجه في هذه الغيبوبة الصاخبة وسط عالم الأحجار والحديد والرسوم. بدأت حديثها عن الذكريات والآمال، وغرق الزوجان في النوم بعد فسحة جميلة، عبر عالم الأحلام، والأعمال، والتفكير في المستقبل.

❋ ❋ ❋

دخل الأطفال إلى غرف الصفوف، وبدؤوا الاختبار.

هذا آخر يوم من أيام الاختبار، بعد ساعة فقط يبدأ الآباء والأولياء بالوصول إلى المدرسة لأخذ بناتهم وأبنائهم ـ والبدء في الإجازة.

كانت أمل قد وصلت مع أبيها، ودخلت المدرسة، وخيالها يسرح بعيداً..

غداً سنسافر إلى البحر، هناك يمتد الماء واسعاً واسعاً، تعلو الأمواج البيضاء، تتلاطم وتلعب مع بعضها، سوف نجلس على الشاطئ مع الرمال، ويقذفنا البحر بحباحب الماء، يجرفنا قليلاً ثم ينحسر ونبقى على الشاطئ، سوف نركض بعيداً، ونلعب، ونسبح، وَعَدَنا أبي بأن يُركبنا في الزورق ونمضي في رحلة بحرية، إنني أخاف من البحر،

ماذا لو انقلب الزورق بنا، وغرقنا، لكن لن أخاف، أبي سيكون بجانبنا وسوف ينقذنا. لقد حدثني طويلاً عن ذكرياته في البحر، لابد أنه يجيد السباحة، ويستطيع أن يحملني مع أختي إلى الشاطئ، وهناك زوارق أخرى، نستطيع أن نركبها يجب أن لا أخاف. إنها ستكون رحلة ممتعة.

وسوف أشاهد أشياء كثيرة وجميلة، وعندما أعود سأحمل هدايا حلوة: لُعب، وثياب، وحلوى، أشياء جميلة جداً، وسوف تراها صديقاتي: عفاف ورنا، وحصة، لا بد من إحضار هدية لصديقاتي... لا.... لا... يجب أن لا أطلب من أبي شيئاً. سوف آخذ نقودي معي، فلديَّ في البيت خمسمئة ريال، سأشتري بعض الهدايا لصديقاتي، لكن أبي ليس بخيلاً، إنه يحبني ويحب أختي وأخي، إنه يشتري لنا كل شيء، ولا شك أنه سيشتري لنا هذه الهدايا، وكل ما نطلب، ما أحلى الرحلات والإجازات!!

وأمي... آه كم أحبك يا أمي... وكم أحبك يا أبي، أكاد أطير من الفرح وأنتظر هذه الساعة بشوق ولهفة لكي أخرج من المدرسة بعد نهاية الاختبار. آه يجب أن أبدأ في الإجابة، ثم أُراجع الورقة، وأخرج بعد الامتحان مع أبي، يا الله أعنِّي، ووفقني في هذا الاختبار لكي نبدأ الرحلة.

❋ ❋ ❋

تدافعت السيارات إلى المدارس، وكانت الوجوه ضاحكة بعد أن انتهى الاختبار.

غداً لن نكون هنا، ولا بعده، عشرة أيام جميلة سنقضيها في إجازة ممتعة نستريح فيها من الدروس، والواجبات والاختبارات.

كانت البنات الصغار يخرجن راكضات، يودعن بعضهن عندما تخرج إحداهن لتصعد السيارة مع السائق أو الأب أوالأخ.

وخرجت أمل تنتظر وتنظر إلى فتحة الباب، وتراقب السيارات، وكلما نادى حارس الباب على اسم واحدة ظنَّت أنها ستكون صاحبة هذا الاسم.

الساعة التاسعة، مرت سريعة، ثم العاشرة تباطأت، وتثاقلت و.... لماذا تأخر والدي؟ لعله انشغل في المكتب ببعض الأعمال... وانتظرت.... لكنها كانت تحس بالضجر.

● لماذا لم يأت أبي؟

ما عرفَتْهُ ينساها، ابنته الكبيرة، وعندما تُغْرقه أعماله وتضيق عليه حتى أنفاسه، يرسل لها سائقاً ليأتي بها، أو يطلب من أحد جيرانه أن يُحضرها مع بناته، اليوم لم يأت أحد بعد، ذهبت كل صديقاتها، وبنات جيرانها ولم يأت أبوها، ولم تر سيارتهم تأتي مع سائق آخر.

● مسكين أبي، لا بد أنه مشغول جداً، لأنه يريد أن ينهي كل أعماله في هذا اليوم ويهيئ ما نحتاجه للسفر في الغد.

سأعاتبه في البيت لأنه نسيني، سأقول له: إنني غضبت منك، لأنك جعلتني أنتظر إلى آخر الوقت، ونسيتني في هذا اليوم بالذات.

نظر الحارس إلى التلميذات الباقيات... خمس فقط.

بدأ يسألهن عن آبائهن وبيوتهن، ثم أشار إليهن أن يذهبن مع بعضهن في أول سيارة قادمة.

وجاءت سيارة، واضطرت وهي خجلى أن تذهب مع إحدى طالبات المدرسة بعد أن وعدتها بمرافقتها وإيصالها إلى البيت.

ما أطيب نفس الصغير وما أحلاها، آه لو كان الإنسان يعلم ما تحدث له الأيام في المستقبل لتمنَّى أن يبقى صغيراً، ورفض أن يكبر مهما كانت الإغراءات، والمكافآت والآمال.

النفس طاهرة زكية بريئة عند الصغار، والتفكير لا تعتقله مشاكل الدنيا والأسواق والأسعار والشهوات حتى تصرعه واحدة من هذه الأمور. الآمال عندهم بسيطة لا تناطح السحاب حتى تسقط أو يصيبها الدوار، وهي جميلة أيضاً، وهذه الآمال بالتأكيد ليست في العمارات والشركات، والحسابات، والمضاربات و... و... إنها في لعبة بسيطة، وأتراب بريئين، وأكلة شهية بعد لَعِبٍ ومرح وطلاقة، أمور بسيطة لكنها مفرحة.

وصلت أمل إلى البيت، استقبلتها أمها بلهفة وانزعاج، وسألتها عن سبب تأخرها. وكادت تبكي... لأن الغضب من حقها هي فكيف تسألها أمها عن سبب التأخير، ولكنها حين نظرت إلى أمها وقرأت على وجهها ما لم تكن تعرفه بعقلها بل فهمته بفطرتها ذهب غضبها. وعلمت الأم أن زوجها «رفيقاً» لم يذهب لإحضار البنت!!

● «سامحه الله... إلى هذا الحد ينسيه العمل ابنته فيتأخر ويتركها في المدرسة إلى هذه الساعة، وفي آخر أيام الاختبار»؟!

ما هذه الحياة التي تأكل عقل الإنسان وعمره وإحساسه، تمتص منه روحه ويعجز عن المقاومة. أكثر من ثلاثة أرباع العمر يذهب في البحث عن لحظة سعادة، وقد يمضي العمر كله ولا يظفر أحدنا بها.

حياة قاسية... ومعقدة، نعم هذه الحياة الآلية قاسية جداً، ولكن قساوتها منظمة ومحسوبة، نظل في البيت سجناء، غرباء.

وتدور الأيام بنا بلا رحمة حتى يأخذنا الدوار، وكل يوم يتكرر باسم جديد.

ولا يحمل لنا شيئاً جديداً، بل نظل راكضين وراء أمل أو آمال بعيدة، لا تكاد تقترب.

الاستيقاظ، والمدرسة، والمكتب، ثم الغداء، والمكتب، ثم المساء برامج التلفاز، ومساعدة الأولاد في كتابة الواجبات، أو حفظ الدروس، ثم النوم.... وهكذا....

يتمنى الإنسان لو يستطيع الخروج من هذه الصورة المكرورة، التي أشبعتنا سأماً، وماذا نستفيد من المال والآمال مع السآمة؟

حتى لو كان معنا عشرة آلاف، أو عشرون، أو ملايين؟

نقنع أنفسنا بأن هذا العمل من أجل المال، والمال من أجل المستقبل، والمستقبل يحمل السعادة، ولكن السعادة لا تأتي، بل تظل بعيدة بعد كل هذا.

هكذا بدأنا صغاراً، ثم شباباً، مضت سنة وسنوات، صار لنا أولاد، بدؤوا يكبرون، والمستقبل ما زال مستقبلاً، واللحظة الحاضرة انتقلت معنا من الأمس، إلى الأمس القريب، ثم إلى اليوم ثم الموت، ومع ذلك لم نصل إلى تلك اللحظة السعيدة، لحظة المستقبل.

كنا نقول: عندما يصبح معنا عشرة نشتري كذا ونفعل كذا، ونستريح، صار معنا عشرة، وعشرون، وفعلنا ما نريد، لكننا لم نسترح بعد، لماذا؟...

هذا السؤال ظل يتكرر كل سنة، ولكنه أصبح بعدها أكثر تكرراً... كل شهر، وألحّ حتى صار يزار بنا كل يوم، وأخشى أن يصبح كابوساً وقريناً في كل لحظة.

آه!! أحسُّ بعظامي يسكنها العجز والفتور... رغم أن عمري مازال في ريعان الصبا، فلقد تزوجت وأنا صغيرة، طفلة، أين أنتِ أيتها اللحظة السعيدة؟ أخشى أن تكون قد فاتتنا في الأمس الذي مضى!!

كانت أمي العجوز تحدثني عن حياة جدّي وجدها، وعلى الرغم من أنها لا تتحدث عن نفسها إلا قليلاً، لكنني كنت أحس إشراقة الأمل والسعادة على محياها، لم أشعر يوماً بفقدانها للطمأنينة، بل كانت بادية في كل نبرة من نبراتها، ربما كانت بريئة من هذا الوهم الذي نعيشه نحن باسم المستقبل والتنظيم والمال والعصر الحديث، والتقدم والاختراعات المتطورة.

● «يا الله! أسألك الرحمة واللطف».

نظرت إلى ابنتها - بعد شرود - فرأتها تقف صامتة أمامها، تكاد الدمعة تترقرق في عيونها، وهي تنظر إلى أمها الشاردة.

تبسمت لابنتها، واستأنفت الحياة مسيرتها من جديد في البيت.

● «لا عليك يا أمل.. غداً سنسافر إن شاء الله، وستنسين الاختبار والانتظار والمدرسة، سوف تنسين أن والدك قد تأخر في

عودته يوم الأربعاء آخر أيام المدرسة، لا شك يا حبيبتي أنه تأخر في المكتب لكثرة عمله، وربما أراد أن ينهي كل واجباته اليوم لكي نسافر غداً، لهذا نسي أن يُحضرَك من المدرسة، وربما كان عنده من أصحاب العمارات أناس لم يستطع أن يتركهم، إن أباك يا ابنتي يعرف كثيراً من الناس الكبار والأغنياء ولا بد له أن ينهي كل أعماله قبل السفر».

● «لا يا ماما.... أنا لم أغضب من أبي... سامحه الله، إني أحبه والله، أشتاق إليه، وأنتظر كل يوم، في الصباح، وفي المدرسة، وفي المساء ابتسامته لي، ولا سيما عندما أخرج من المدرسة، إنني أفتخر أمام صديقاتي بهذه الابتسامة، لم أغضب منه لعدم حضوره إلى المدرسة، لكنني قلقت عليه. لقد وعدني بأنه سيأتي، ولم يكن يخلف معي موعداً، ولا تأخر في يوم قال لي بأنه سيحضر، لكني لم أغضب من أبي، أبي يتعب من أجلنا، وأحبه أحبه كثيراً، سامحيني يا أمي».

البيت حديقة هادئة، ورودها ثلاثة صغار: بنتان وصبي ما زال في أولى خطواته، كل شيء يفوح بالشذى والعطر، سكينة وهدوء، أحلام وآمال، محبة متبادلة، ووفاق واحترام، حيث لم يعد إلا هذه الساعات القليلة التي يجلسها «رفيق» في بيته مع زوجته وأولاده بعد أن يتخلص من الرسوم والخطوط والأرقام والمصورات، لقد امتص العمل، والأحلام كل وقته وفكره، حتى بدأ يغزوه في البيت، وصار يحتاج إلى تركيز إحساسه الحقيقي ليكون في البيت حقاً خلال هذه الساعات القليلة. إنها اللحظات الوادعة الوحيدة، وقليلة تلك اللحظات في عصر

الأرقام والبترول، والطائرات، والسرعة، وأحلام الذهب والأحجار المرصوفة، والألوان البراقة، ولا سيما في حياة رجال الأعمال والمهندسين.

* * *

كان المكتب يغص بالعاملين والمراجعين، حضر مدير الشركة، وسأل عن رفيق ولم يتلق جواباً سوى: «لا نعرف لماذا تأخر».

مضت ساعة.... ساعتان من الزمن.... ولم يحضر رفيق.

كانت الساعة المعلقة على الجدار تطرق طرقات قوية رتيبة في كل ثانية، وكأنها تنبّه إلى نتائج هذا التأخير:

● واحد.. اثنان.... ثلاث... أربع... عشرة... عشرون.. خمسون ثانية.... دقيقة.... دقيقتان.... عشر.... أربعون..... ساعة..

● «سوف نتأخر عن تسليم المخططات، ولدينا مستخلصات، وبعض الحسابات التي تحتاج إلى المراجعة». وانتهى كلام أحد الموظفين عندما عاد المدير بعد ساعة من الزمن، وسأل مرة أخرى عن رفيق وكان بادي الانزعاج:

● «ألم يحضر بعد؟ ولماذا تأخر؟ هل اتصل بأحد؟»

● ألا يعرف أن تأخره سوف يكلفنا آلاف الريالات، كل دقيقة ستكلفنا مئة ريال أو أكثر... وظل فكر المدير في حساباته حتى دخل غرفته.

● كل شيء يقاس بالأرقام والحسابات في عالم المكاتب والشركات والمؤسسات والعمارات الفخمة، ورجال الأعمال الكبار، والدول والرؤساء!!

المسافة بين البيت والمكتب عبارة عن أربع دقائق وعشر ثوان. لا فرق بين أن تكون المسافة مئات الأمتار أو عشرات من الناس المارين أو الأبنية المرتفعة، أو عشرات السيارات والمنعطفات، قد يعيق المار حادثة اصطدام مروعة كالتي وقعت قبل أيام حين اضطرت على أثرها إحدى السيارات المسرعة أن تصطدم بحاجز الجسر الحديدي، ولكن القدر أراد لها أن تعلّق من عجلاتها الخلفية، وتتدلى فوق الطريق، حتى توقف السير، وتزاحمت السيارات. وعلا زعاق الأبواق والضجيج، وازدحم المتطفلون، ولم يستطع رجال المرور الوصول إلى مكان الحادث إلا مشياً على الأقدام.

لم يعجب هذا المنظر بعض المراهقين، أطلق لبوق سيارته العنان لم يُفتح له الطريق، لأنه اختفى تماماً في زحمة السيارات، أراد أن يعلّم الناس بأن الشباب يشقّ طريقه وسط العباب مهما كان صعباً لأنه طامح، وأنه يُفلتُ من المألوف. انحاز بسيارته نحو الرصيف، وأطلق لسيارته العنان، حتى قفزت كالشيطان على الرصيف، سار عدة أمتار، وانعطف في إحدى الحارات بسرعة ، كانت العجلات تتزحلق وتئزّ وهي تدور بسرعة ولا تكاد تلامس الأرض، تصاعد الغبار، وقذف بالحصى وراء العجلات فهرب الناس حتى لا يصيبهم الأذى، أو تخطفهم العجلات المجنونة.

أحد الصبية الصغار كان ذا شعر مجعد، يلبس ثوباً متّسخاً ويلعب أمام البيت مع صبية من أترابه، ويقفز وراء كرته الصغيرة في هذا المكان الآمن الذي لا تروده السيارات، بدا وكأنه يهزأ بالكبار الذين لا يعرفون كيف يحتضنون السعادة، يركضون ويحسبون، ويستعملون الآلات الحديثة، والمخترعات المتقدمة، ولكنهم يخطئون في الوصول إلى ذلك الحلم ـ السعادة ـ ولا يعرفون كيف يكون الفرح.

كان الصغير لا يدري من حياة الناس العصريين شيئاً غير بعض الحصى، والتراب والكرة، وصبية من أترابه يلعب معهم.

لا يأبه للثوب المتسخ، أو الجلد الخشن، أو اللون الأسمر القاتم، يعيش في عالم خاص بريء، وبسيط، لكنه مغمور بالسعادة من أسفل قدميه إلى فوق رأسه. قلبه صغير، أحلامه بسيطة لا تعدو فِراشَهُ وألعابه، لكن سعادته دارٌ ودنيا وآخرة.

فاجأته السيارة المجنونة، واختطفته العجلات المطاطية المجنونة. لا حول ولا قوة إلا بالله.

● كيف نقول مجنونة؟ هذا هو الوهم، ومتى كانت عاقلة؟

هكذا أردنا أن نضفي على الآلة صفة العقل ونعطيها سمة الحياة والإنسانية، ثم سلخنا من الإنسان أكرم صفاته وأردنا أن يكون قطعة من الآلات، ففشلت الآلة وضلّ الإنسان، وسقطت الحياة.

سقط الصبي تحت العجلات، ونزف الدم قليلاً من رأسه، كان يبتسم قبل أن تصل إليه السيارة وهو يرى عجلاتها تلتوي بسرعة، وظل يبتسم بعدها وهو يتمدد على التراب، ومضى في سعادته الأبدية

وهـو يبتسـم، أو يسـخر. صرخـت الأم، وصـاح الأب، وغضـب الأخ، وتجمع الجيران، وتوقف المارَّة، وخرج المراهق مجنوناً حائراً. وأسرع البوليس....

لكن الطفل ظل يبتسم، يهزأ بعالم الكبار الذين ضاعوا بين عجلات السيارات، وأنياب الآلات، وأظافر الحاسبات.

❋ ❋ ❋

ما زال المدير ينتظر... ينتظر بقلق، (ورفيق) لم يحضر حتى هذه اللحظة. هكذا كانت المسافة بين البيت والمكتب أربع دقائق وعشر ثوان فقط، فقط. كان ينظر إلى عقارب الساعة، ثم تغوص نظراته وتتحول إلى أرقام وحسابات... (٧٠) دقيقة × (١٠٠) = (٧٠٠٠) ريال .... (١٠٠)× (١٠٠)= (١٠٠٠٠)...

وهكذا تتصاعد الأرقام. تتراكم، تلسعه أقوى من سياط المحققين العصريين، وتحرقه كأصابع الكهرباء المحرقة، في سجون الحكام اللامعين. دماغه تحوَّل إلى آلة، والساعة في ركن منها يتضاعف فيها الرقم، وتزدحم الحسابات حتى كادت أن تصل إلى النهاية وتتوقف... بل تتفجر.

● «المسافة بين البيت والمكتب أربع دقائق، وعشر ثوان، ولتكن خمس أو عشر.... أو ساعة... ساعة هل هناك أكثر»!

● «لِنَفْرِضْ أن شيئاً أعاقه عن الوصول.. يمكن له أن يتصل بالهاتف ويعلمني عن سبب التأخر» لماذا تفعل هكذا يا رفيق؟

المشروع الثامن والمخططات، والمستخلصات.. لا بد من أن يراها رفيق ويوقع عليها قبل الإجازة.

العمل: آلة عمياء صخمة، الآلات والسيارات والطاولات والإنسان والحاسبات كل ذلك أجزاء فيها وهي مترابطة، والعمل يستمر ما دامت هذه الأجزاء تعمل بانتظام.

عندما يصيب أحد الأجزاء خلل، أو تفقد انتظامها، تتوقف الآلة الكبيرة، أو تضطرب، فيتراكم العمل، وتدب الفوضى. لا بد من التوافق، والانسجام، والدقة. المسافات بين الأجزاء محددة ودقيقة.. أحياناً تقاس بالأجزاء البسيطة جداً من المليمتر. والزمن محدد أيضاً، حتى الثانية تتحول إلى شريط طويل قد يبلغ ألفاً اوأكثر من الأمتار ولـه أجزاء دقيقة، دقيقة حتى العدم. ولكل مشروع حساباته المحددة.... كلها دخلت بين أنياب الآلات والأشرطة، مشاريع ضخمة وواسعة ـ وكل وقت يفوت والآلة متوقفة يُسقط من الرقم الأخير للمشروع أضعافاً مركبة.

● «رفيق مهندس محترم، دقيق في حساباته، لبق في معاملاته ـ شاب، نشيط، حيوي، قلّما تأخر، يدرك المسؤوليات التي تُناط به، لقد كان وراء النجاح لعدد من مشاريعنا، يجيد اللغة الإنجليزية، ويتقن التحدث مع الناس، ويفهم لغة العصر جيداً لذلك لا بد من وجوده. فلماذا تأخر اليوم»؟

● «أنا أعرف أنه يستعد لقضاء إجازة لمدة أسبوع مع زوجه وأولاده خارج المدينة، لكنه وعدني بأن ينهي هذه الأعمال ولو اضطر إلى العمل في الليل قبل أن يمضي».

● «لا أفهم كيف يحدث ذلك!! التأخر! الظروف! كارثة حقاً».

● بعض الناس البسطاء لا يفهمون كيف تسير الحياة، ويظنون أن الوقت ساعات ودقائق وثوان... وأنه هباء لا قيمة له، أولئك خارج العصر.

آه!.. العصر الحديث.. العصر الحديث أتى بالأعاجيب، وأصبح الإنسان العصري مخلوقاً آخر، تفوّق على نفسه، أصبح كالآلة. هراء.... هراء.... الساعة ما زالت تدق بانتظام، لا تحس بالألم الذي يكتوي به المدير من ضرباتها المتوالية.

● رن الجرس فدخل الخادم: أمرك يا سيدي.

● «قل لماجد أن يبحث عن أقرب رقم لبيت المهندس رفيق... أظنه ترك رقماً لبيت أحد الجيران».

الهاتف... الهاتف.... لو كان عنده هاتف لما تعقدت المشكلة، لا يدرك المسؤولون أثر ذلك على الأعمال والمشاريع والتنمية والتقدم، كم سبَّب لنا من تأخير وخسائر، فشلت كل المحاولات والوساطات في تأمين خط هاتفي لبيت رفيق، الخدمات ما زالت متأخرة، تحتاج إلى قفزة آلية.

● «هذا هو الرقم يا سعادة المدير».

بقي ساعة لعودة رفيق إلى البيت.

ورغم ما كان ينتاب سلوى - زوجته - من القلق لعدم مجيئه مع ابنته لكنها كانت تعرف جدّه وحرصه على تأدية واجبه، إنه مخلص

ودؤوب في عمله، يكره التهاون أو الفوضى، لعله آثر أن ينهي عمله في المكتب، ويستغل كل الوقت من أجل ذلك.

كانت تشعر بالسعادة لنجاحه في عمله، واعتماد مدير الشركة عليه، ولكنها تُشفق أحياناً عليه لكثرة ما يبذل في سبيل هذا النجاح، تعرف أنه حريص على سعادة زوجته وأولاده، وثقتها به كبيرة، لا يشوبها أية شائبة. عشر سنوات مرت على زواجهما فلم تَزِدْهُم إلا وداً ومحبة رغم زيادة الأعباء وكثرة الانشغال وضيق الفُسَح.

لا مفرَّ من المنغِّصَات أحياناً، فهي كملح الطعام كما يقولون.

لكنها حينما تذكرها مع الأيام الجميلة التي أمضياها معاً في أولى مراحل الزواج تختفي هذه المنغصات تماماً. ما أجملها قبل أن ينشغل بالمشاريع، وتزداد عليه أعباء الحياة.

رحلات ما زالت حية ـ ليال جميلة كالأحلام، حفلات وردية مضيئة.. أوربا وكثير من بلدان آسيا مازالت ذكرياتها محفوظة في دفاتر الذكريات «وحافظات الصور» عند سلوى!

● السنوات الخمس الأولى من زواجهما لم تخل واحدة منهن من رحلة إلى بلد أوربي أو أكثر رغم ضيق اليد.

● عشرات الأسماء والكلمات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية عادت معنا من هناك، وأصبحت هنا في البيت، كيف تُنسى مثل هذه الذكريات؟

● لقد كان زوجاً محباً، رفض أن يُصغي لأي حديث ينغِّص عليه هذه السعادة، همس له والده، نصحته والدته، إخوته، وغيرهم، ولكنه كان يريد

أن يكون ربَّ أسرته... ويخطُّ الحياة كما يريد... ولهم منه أن يعينهم بالمال وما يحتاجون من أمور مادية، أما حياته وحريته فلا مجال للتفريط فيهما.

● إنها تحسُّ في كل زاوية من زوايا البيت بدفء الحب، وصفاء الثقة المطلقة بينهما التي ما تزال في ازدياد... ولا تهمُّ زحمة الأعمال وكثرة المشاغل...

● سمعتْ رنين الجرس الكهربائي الذي يقلد الشحرور، ولم تنتظر لتفتح ابنتها الباب، بل أسرعت وفتحته.

● «مدير الشركة يسأل عن المهندس رفيق، ويقول إذا كان هنا فليسرع إلى المكتب لأنهم بحاجة إليه».

كادت تسقط على الأرض، دارت الأرض بها واهتزت، تماسكت قليلاً... ومرت ثوان طويلة حارّة قاسية قبل أن تفيق وتجيب الطفل الصغير من أبناء الجيران الذي جاء يخبرها بطلب المدير.

شعر الطفل أن المرأة غضبت، أو... لا يدري ما يسمون هذه الحالات التي بدت من منظرها، بدأ يبحث عن سبب انزعاجها، تلفَّت حوله فلم ير شيئاً، لمس ثيابه وشعره، ثم أنفه، أخرج منديلاً ومسحه جيداً، لعله السبب.

● «قُلْ له: لم يأت إلى البيت.... و... و.... فقط هكذا». أجابت سلوى.

● عاد الطفل مسرعاً إلى البيت، ونقل الجواب عبر أسلاك الهاتف إلى مدير الشركة، وأغلقت سلوى الباب؟!

● «لا شيء... لا أدري لماذا شعرتُ ببعض التعب فقط...، «سوف أستريح قليلاً».

وارتاحت على السرير....

أين ذهب رفيق إذن؟؟

زحام الطريق، كثرة الحوادث، صخب المدينة.... كل ذلك يفتح نافذة للريح السموم التي تدخل إلىنفسها، تتحول إلى وحوش ضارية تمزّق نفسها قلقاً، ولكن ماذاتعمل.. لم يشتر لهم رفيق من أوربا آلة تستطيع أن تنقذهم من الهواجس، والظنون ومخاوف المستقبل.

❋ ❋ ❋

تسربت السيارات واحدة إثر أخرى من أمام المدرسة، وغابت في جوف المدينة الآلية.

ولكن سيارتين من سيارات المرور ما زالتا تقفان قريباً من أبواب المدرسة للمحافظة على الآداب العامة، والحدّ من عبث المراهقين والطائشين.

والتفت أحد أفراد الشرطة إلى جانب سيارته التي بدأت تمشي ببطء فوجد إحدى السيارات تقف على بعد عشرات الأمتار من باب المدرسة، كان محرك السيارة يشتغل بينما أكب السائق على مِقْوَدِ السيارة، ولعله غفا قليلاً ليستريح.

ابتعدت سيارة الشرطة قليلاً، ثم استدارت وعادت تقترب من السيارة الأخرى. سائق السيارة ما زال مكباً على مقود السيارة. بينما ترك المحرك يعمل، فخشي الشرطي أن يكون السائق نائماً، فتتحرك يده

لتندفع السيارة فجأة وتقع حادثة ما، فقرر أن يوقظه، وينبهه إلى إطفاء المحرك إذا أراد الوقوف، أو المسير إلى مكان عمله إن كان يريد ذلك.

● اقترب الشرطي من باب السيارة، رأى زجاج النافذة مغلقاً، طرق عليه بهدوء، ولكن السائق لم يلتفت، ولم يجب.

بعض السائقين يحاول أن يتجاهل تنبيه رجال المرور، لكن سمات الرجل لا تدل على ذلك النوع من الرجال، لعله مستغرق في نومه.

● عاد ليطرق مرة أخرى، ولكنه لم يستيقظ، ولم يجب!!

لعله كان متعباً فنام، واستغرق في نومه. هذه المدينة تأكل وقت الإنسان وترهق أعصابه، وتتعب من يسكن فيها...

● أمسك الشرطي بالباب وفتحه، وصاح على السائق ليستيقظ، ولكنه ظلَّ على حاله مستغرقاً في النوم.

● أمسك بيده وأراد أن يحركها ليوقظه، فإذا بها باردة جامدة، تحرك معها الجسد كله!!...

● نظر الشرطي جيداً إلى وجه الرجل، رآه محتقناً، بدت عروق وجهه زرقاء اللون منتفخة، وطرف لسانه يعترض فمه، وعيونه مغمضة يحيطها الاحمرار، لقد تيبَّس الرجل.. رحمه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كان شكله أنيقاً، نظيف الثياب، ناعم البشرة....

عليه سمة الأناقة.... لكنه تيبّس، ولم يعد يتحرك!!

«مسكين إنه ميت» لا حول ولا قوة إلا بالله، رحمه الله.

«مسكين إنه ميت» لا حول ولا قوة إلا بالله، رحمه الله.

أسرع إلى جهاز الاتصال، وأخبر قيادته بذلك، وبعد ثوان كان الأطفال، وعدد من المارين والسيارات والجيران قد تجمعوا حول السيارة، وبدؤوا ينظرون ويسألون، وبعد قليل كانت إحدى سيارات الإسعاف قد وصلت، ونقلت الجثة الساكنة إلى المستشفى.

أسرع الطبيب للنزول، أجرى الفحص المبدئي، أصغى إلى المسماع ولكن لا يوجد هناك أي أثر لضربات القلب.

أمر الخدم والممرضين أن ينقلوه إلى السيارة، ثم انطلقت السيارات نحو المستشفى.

❋ ❋ ❋

لم يعد المدير يستطيع الصبر، كل شيء في المكتب قد أصابه الشلل، موظف الآلة الكاتبة، اضطر لأن يعمل على الآلة الحاسبة، بعض الموظفين الذين يسجلون الخطابات الواردة اضطروا للمطابقة بين عدد من نسخ المصورات.

نزل المدير بنفسه يحاول أن يساعد في إنهاء بعض الأعمال.

● ماذا حدث لرفيق اليوم، وكيف يتركنا في هذه الفوضى؟

كل الآلات، المعامل، الشركات، المدينة الحديثة... آلات صماء مترابطة أسموها تنظيماً وتقدّماً.... كلها تعمل مع بعض. ذرة رمل صغيرة تدخل بين أسنان واحدة منها تكفي لأن يدب الشلل فيها جميعها.

كل واحدة تعمل على ما تفرزه لها سابقتها، فإذا توقفت واحدة، توقفت عشرات، ووقف العمال بلا عمل يتسكّعون.

ليس مهماً أن يعرف صاحب الشركة سبب التوقف بقدر ما يعرف الأرقام التي تتراكم أمامه من الخسارة أو الربح، وهذه الأرقام أصبح لها أنياب ومخالب تنغرس في جسده، وروحه، وتأكل من دماغه.

كل همه أن تدور هذه الآلات: واحد يأتي، وآخر يذهب. هذا يمرض، أو ذاك يُسرّح من عمله، أو ثالث يموت، ليس مهماً. يجب أن نضمن استمرار العمل للآلة، لا بد من قِطَع تبديل، والحساب الآلي يوفر دائماً الاحتياط حتى لا تتوقف الآلة.

❋ ❋ ❋

مضت الساعات ثقيلة بطيئة سوداء في بيت رفيق.

منذ أشهر طويلة لم يتغيب عن موعد الغداء، أو يتأخر عن البيت، ماذا حدث اليوم، ولماذا تأخر؟

لا أحد يجيب، اضطرت سلوى أن تضع الطعام عند العصر أمام أولادها، وتظاهرت بالأكل حتى يأكل الأطفال، ولكنهم لم يستطيعوا. قالت لهم كلوا، فسوف يأتي أبوكم بعد حين ونسافر.

كان الصغار يسألون: متى سيأتي بابا؟

الدموع غالية... غالية.. ليتني أستطيع البكاء.

ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

أصبح السؤال كبيراً، يندلع كالدائرة في الماء حتى يتلاشى مع نهاية الماء، ويغيب... ويغيب.

الساعة الرابعة ـ الخامسة ـ السادسة....

ماذا حدث، الإجازة تبدأ من الغد، وسنسافر إن شاء الله، لكن «رفيقاً» تأخر، هل مازالت هناك أعمال تلاحقه حتى هذه الساعة؟

❋ ❋ ❋

كانت الساعة تقارب الثامنة مساءً عندما رن جرس الهاتف.

- ألو... السلام عليكم.. بيت من هذا؟
- وعليكم السلام.... هذا بيت فاروق....
- هل أنت قريب المهندس رفيق..
- نعم.
- لا حول ولاقوة إلا بالله. كلنا تحت قضاء الله، إنه مات، لا بد من حضورك، يرحمه الله
- ماذا ماذا؟
- نحن بانتظارك في المستشفى المركزي... السلام عليكم....

❋ ❋ ❋

سألته زوجته... أولاده... ماذا حدث.

وقف مبهوتاً... لا حول ولا قوة إلا بالله... إنا لله وإنا إليه راجعون

قالت الشرطه إن رفيق قد.... ماذا؟ مات.

تحوَّل بيت رفيق بعد ساعة إلى مأتم.

❋ ❋ ❋

كانت زواياه تبكي المهندس النشيط، القطع الأثرية، الأثاث الفاخر، الفراش الوثير، الستائر الهفهافة، الصور، والذكريات والأولاد.

ووقفت أمل وسط الوافدين حائرة تبكي وتنادي: بابا... بابا.... أريد أبي.... لا تتركني يا أبي.

والزوجة سلوى كانت ترى المستقبل ينهار فجأة، والماضي يحترق، وأيامها الندية تمزقها الريح.

لم يبلغ الخامس والثلاثين سنة بعد، بقيت آماله الوردية تعيش في دماغه. لقد عجزت عن النفاذ إلى الواقع.

الجيران والأقارب يتوافدون للمواساة: إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمه الله:

- كان لامعاً!
- كان نشيطاً!
- كان ذكياً!
- كان ناجحاً!
- كان لديه آمال كبيرة! وكان طامحاً، و....

ودبَّ عجوز يحمل على كتفيه أعباء الثمانين.

أمسك بالصغار فقبلهم: لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، لا تحزنوا يا أبنائي فالله هو الذي يرعاكم، ادعوا لأبيكم أن يدخله الله الجنة.

وعبر الدموع الصغيرة تمتم الصغار يطلبون لأبيهم الرحمة.

❋ ❋ ❋

لقد انتهى الفصل الأول، وانتهى الاختبار الأول، ومضى الطلاب إلى رحلات قريبة وبعيدة التماساً للاستجمام والراحة.

وقضت سلوى وأولادها الإجازة يستقبلون التعازي.

كانت الزوجة تحلم بإجازة قصيرة، ولكن بدأت تتصور كم ستمضي وهي في بيتها: أربعة شهور و... ، ربما بقية العمر.. والصغار، متى يعودون إلى المدرسة وكيف؟

وتذكروا «رفيقاً» وهو يخطط للأبنية، ويدفع الحسابات للآلات.

وقالوا لقد توقف قلبه عن العمل.

ما هو القلب يا ماما؟

وحارت الأم في الجواب!!

ولكنها أرادت أن تتكلم: آلة صغيرة لينة فيها سائل أحمر، لا تتجاوز قبضة اليد، لم تمسّها يد إنسان، وليس لها بديل.

كل الاختراعات والأموال لم تستطع أن تحرك هذا القلب الذي توقف، لقد وقف الجسد كله ولم يتحرك، وبدأت الإجازة الطويلة.

❋ ❋ ❋

- لا بد من تنظيم المكتب بعد موت رفيق، يرحمه الله.
- ومتى ستأتي بمهندس يقوم بعمله يا سعادة المدير؟
- سوف نحضر واحداً بأسرع ما يمكن، لقد تراكم العمل.

يرحمه الله كان يقوم بأشياء كثيرة، وموته سبب لنا خسارة كبيرة حقاً.

❋ ❋ ❋

قال أحد الخادمين الذين لا يعرفون لغة العلم الحديث: رحم الله المهندس «رفيق»، كان طيب القلب، لم يعرفوه إلا بالخسارة والربح.

ما أقبح الإنسان، لقد نسي أنه إنسان، وضع نفسه ذليلاً أمام الآلة، وظن أن أسنانها الدقيقة تستطيع أن تمضغ أحلامه كلها وتحولها إلى مستقبل وسعادة!!.

قاس عمره بالأرقام، وغرق في الحسابات المادية.

لقد جهل الحقيقة، جهلها، هذه الآلة توقفت فجأة ، وعجزت الدنيا عن تحريكها. لكن الصغار الباكين والأرملة الشابة لم تفهم هذه اللغة.

والمدير ظل يبحث عن مهندس آخر.

حين توقف القلب هذه الآلة الصغيرة.

مسافر

بكى كما يبكي الأطفال، وشهق كما كان يشهق وهو صغير عندما يتألم أو يشعر بالظلم، والصغير عالم بريء، قد يبكي لسبب تافه في نظر الكبار، ولكنه في حس الطفل ظلم فادح... ولكن أين هذا العالم منه اليوم؟ مضى منذ زمن بعيد، بينه وبين عالم طفولته عقود كثيرة.

هل وصل به الضعف إلى هذا الحد؟ فكلما غادر أحدُ أقاربه وودّعه يقف وقد استبدّ به الجزع والحزن، وينفجر بعد الوداع باكياً!!. لم يعد يحتمل الوداع! أم ماذا؟

لكن أي أقارب هؤلاء الذين يبكي لوداعهم؟ الأمور التي تتعلق بالمشاعر الإنسانية ليست بهذا الإطلاق والتعميم، والمسافة بين قريب وآخر كالمسافة بين بلد وآخر أحياناً، لقد كان يودع أمه وإخوانه، وأبناء إخوانه... وهؤلاء ليسوا كأي قريب. أمه لديه لا يعدلها قريب ولا بعيد في حياته، يكفي سماعه هذه الكلمة لتعجّ نفسه بشتى المشاعر والانفعالات.

ودّع أمه وعاد، فبكى... سنوات مديدة تجتمع هنا عند الوداع، ذكريات لا حصر لها تتهافت بلا انتظام عليه وهو عائد إلى البيت.

كانت أمه الصابرة تقدم له الحب والحنو والصفاء، وكل ما يحتاجه من دواعي الطمأنينة، وتمسح عن نفسه الأسى والحزن، وتمده بالعزم والصبر.

أمه تاريخ طويل في حياته، يحمل كل الذكريات الحلوة البريئة للطفولة العذبة البسيطة، وللحياة الطبيعية الممزوجة بالعذاب والعذوبة معاً، وكل مواطن ذكرياته في البساتين والحقول التي كانت تحتضن قريته الشامخة، فتعطيها ظلالاً حانية، أو في بيتهم القديم المؤلف من غرفة

واحدة، فيها كل ماتحتاجه الأسرة الصغيرة... أو في بيتهم الجديد الذي بناه والده بعرق وتعب وجد، وكانت أمه المساعد الأول لأبيه عندما كان يبني الجدران، كانت تحمل الأحجار على كتفها، وتصعد على السلم الخشبي، لتناول والده حجراً بعد آخر، وهو يضعها في مكانها بانتظام، ويملأ ما بينها بالإسمنت.. وكانوا سعداء مع عرق التعب الشديد!!

كل حجر يحمل ذكرى، ويخبىء في جوفه الصلد بعض كلماته الصغيرة، أو حكايات طفولته التي يعبر فيها عن تعبه مع أخيه الذي يكبره بثلاث سنوات حينما كانا يتعاونان لنقل الأحجار من مكان لآخر، أو نقل الرمل والإسمنت... وقد تصاب يده أو رجله بجراح، وقد... وقد... ذكريات تترى وتتحدث له عن تلك الأيام، يوم يلقى أمه، أو يودّعها!!

بيته: كل زاوية فيه تحمل له ذكريات، سريره الحديدي القديم، الرفوف الخشبية وسط الجدار حيث كان يضع كتبه التي يشتريها بقروشه القليلة.. كيف مضت هذه الذكريات وإلى أين؟ بيته ذاك قد تهدّم وأصبح أنقاضاً، وقامت موضعه عمارة جديدة... آه ضاع كثير من العمر بين هذه الأنقاض!! وغابت تلك الذكريات الحلوة!!

الحياة كلها أصبحت غيرها بالأمس، تغيّرت، وتبدلت، أصبحت بلا قلب، صلدة كالحديد، قاسية كالموت... ولذلك يبكي اليوم كلما ودّع أمه، أو كلما ودّع أحداً ممن يحرك في داخله ذلك العجيج المخبوء من الذكريات. هذه الأيام التي تتشبث بالحياة، وتعاند النسيان، وتود ألاّ تزول مع الأيام التي تمضي بلا وداع.

كان عائداً إلى البيت بعد وداعه لأمه وإخوانه وأولادهم، حيث سمع منهم الدعوات وكلمات الود التي تؤنس وحشته، رأى أمه لا تقوى على الإشارة له بالوداع وهي تبكي بصمت قاهر، كما كانت تفعل من قديم عند أي مصاب، بكى وشهق كالصغار، واحمرت عيناه، واضطر للتواري عن أنظار الناس، كي لا يروا رجلاً جاوز الخمسين يبكي كالصغار.

السنوات التي تراكمت فوق كتفيه، وملأت رأسه بالشيب، وخطت فوق جبينه تغضنات كثيرة، بدأت تحرك في نفسه بعض العزة الجريحة: لماذا البكاء؟ أنت كبير السن، لك بنون وبنات وأحفاد، لك تلامذة هنا وهناك، ومع ذلك تجزع من وداع؟! أين الصبر؟

يتماسك، ويمسح دموعه، ويحاول أن يبتلع الغصص التي تفاقمت في داخله... يحاول، ويضغط بأسنانه على شفتيه، يتلفّت هنا وهناك.

لكنه يفشل، ولا يقوى على منع دموعه من أن تزحف ببطء مرة أخرى، الدموع لا تحتاج إلى استئذان، وليست ذات صلة بهذا العالم المتأجج بالمادة والقسوة والجفاء... هي تتجمع في مآقيه، وتتحدر ببطء...

في هذه اللحظة التي تقهر إرادته دمعة شفافة، تتجمع لديه اثنتان وعشرون سنة مرت قاحلة ظمأى بلا شفقة، بكل ما فيها من عذاب ومهانة... ومرارة مجبولة بالمذلّة.... وهي تضغط على أحاسيسه وتهزم بقايا صبره المتشتت، فيهرع إلى دموعه الوفية، متنفساً له كي لا ينهار!! اثنتان وعشرون سنة مرت، وأمه بعيدة عنه، وحين يراها، يراها كالطّيف وتمضي بعد ذلك إلى بعيد، تحمل معها كل ذكرياته، تحمل سنوات عمره الماضية في بلده الذي غادره ولم يعد إليه بعد...

اثنتان وعشرون سنة مشت على كبده بطيئة ثقيلة، توالت عليه وهو بعيد عن بلده وأهله ومرابع طفولته، وساحات ذكرياته: عن الجبل الحاني، والوادي الوديع، والحقول الضاحكة السمحاء... عن كتبه المختلفة التي تركها وعليها خاتمه المتطلّع إلى المستقبل، عن كتاباته التي أودعها دفاتره وفيها أفكاره وذكرياته وآماله العِذاب التي كان يظن أنه سيعود إليها بعد سنة أو سنوات، ولكنه ظل تحت طرقات سنوات الغربة القاسية حتى هذا الحين !!

هل هي بسيطة تلك السنوات التي مرّت، وهي تتكثف كما تتكثف المادة في ذرات، تتضغط تحت تأثير العوامل القوّية حتى تتهيأ للانفجار، فإذا انفجرت هذه الذرات ـ دمّرت ما حولها من الحياة والأحياء... فكيف لا ينفجر باكياً؟.

وكذلك سنواته تتكثف في رأسه، وتتضغط، وتمرّ أمام مخيلته بسرعة متناهية، ويحسّ بأنه يكاد ينفجر ويذوب في لهبها ونارها، وقد يتمزّق من هول انفجارها، ولكنه يصبر، أو يتصابر، فتسعفه هذه الدموع، ويتركها تسحّ وتنهمر، ويشهق أحياناً لكي يخفف الضغط الذي يتشبث به من داخله، من ذكرياته التي بدأت تتبعثر.

عجباً!! لماذا هذا الجزع؟ الحياة هكذا تمر، والناس يروحون ويعودون وكلٌّ ينشغل بأعماله، فلماذا كل هذا الضعف الذي أنت فيه؟

صوت يأتيه من خارج مشاعره، ويطرق رأسه الملتهب، ويحاول الوصول إلى نفسه المملوءة بالحزن والجزع، ويرسم علامة استفهام وتعجب، تتكرر هذه العلامات وتتضخم، ويتوقف دمعه ويبدأ بالتفكير.

شريط الذكريات لاثنتين وعشرين سنة يعود للحركة، يمضي بلا توقف: كل يوم يشرب كؤوساً مترعة من الألم، وبألوان شتى، وطعوم مختلفة. هنا ترى الناس من كل لون وجنس ولغة ودين، فيزيد عذابك تلوّناً وطعوماً جديدة لم تألفها، وكلها تترك في جوفه وحلقه مرارة لاذعة، وتزداد المرارة، وتسري لذعتها الممضة كالسمّ في كل جسده، لذعة الغربة الصحراوية الجرداء قاسية، تطالعه في كل زاوية، وعند كل حركة.

كل أوراق حياته ملأى بالمرارة، وفي كل مكان، عندما ينشط لتقديم مايفيد للآخرين، والقيام بأي واجب، أو نشاط إنساني كريم، يسمع الصرخة الجارحة ممن حوله، ومما حوله: أنت غريب، هذه ليست بلدك، ولا دارك، لماذا أنت هنا؟!!

أنت أجنبي، أجنبي .. من الأجانب!! لست من أهل البلاد..!!

الأجنبي!؟ الأجنبي؟... في كل زاوية، في المذياع، والمدرسة والسوق.. مع الأطفال، والأحلام، وتحت كل وسادة يضع فيها الغريب رأسه عليها لينام ويستريح... وبعد كل جميل يقدمه للآخرين، وجواباً لكل كلمة حانية، إنسانية، أخوية... يسمع هذا اللّفح المالح: غريب، غريب، أجنبي، الأجنبي....: هو الهمّ، والأحزان، والمشكلات، هو المرض والغصّة والخطر، والعقبة، والانحراف، ومشكلات الأسرة، وحوادث السير!! هو العدو، والاحتلال و... !! ومتى نحتفل بتوديع آخر واحد من الأجانب؟

مرارة قاحلة، غربة حارّة تغوص في الأعماق، تغوص بلا رحمة، تحرق، تمزق، تلهب الأكباد، تسفح الدم الحار بلا رحمة، خالية من أي

قدّر من الشفقة... وتسكن في كل خلية، وتصبغ كل الذرات اللامتناهية في الصغر من الحياة التي نحياها... اثنتان وعشرون سنة تمر وسط هذه الغربة... هل من حياة؟

يجأر القلب بالدعاء عند السحر، وفي جوف الليل، عندما تتكثف مشاعر المرارة والغربة، يتمتم دائماً وهو يحمل خطواته للمسجد:

اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك... اللهم لا تجعل لظالم علينا يداً، اللهم ارحم غربتنا، وضعفنا، وفرّج همومنا وكربتنا، واغفر لنا ذنوبنا، وارحمنا يا رب...

وعاد يتمتم هنا بعد هذه الخواطر الكثيفة وهو في طريقه إلى البيت، وترك دموعه الحانية تسقي عيونه الظمأى، بعفوية وبساطة...

سوف يصل إلى البيت، ويجد زوجته وأولاده، سوف يأكلون ويشربون، وغداً سيسافر الأولاد إلى بلد الغربة، ويبقى وحده أياماً مع زوجته. خمسون عاماً تكدّست هنا هموماً، وذكريات... يحملها آلاماً وعذاباً، وبعد كل هذا العناء لا يجد موطناً أستقر فيه، في هذه السن وهو أسير نحو الشيخوخة، يفتش عن ظل يستريح فيه، فلا يجد الظل! ولا يجد المكان!!.. هذا العالم الواسع ضيق ضيق يبخل على هذه الشيخوخة المتعبة بفسحة من المكان ليستريح فيها!! ولكن تبقى حقوق الإنسان محفوظة! وحريته مضمونة! والعالم الحديث يرعى ذلك كله!! لم يعد يأبه لما يجري لدموعه، لا شك أنه يستريح لها، وكأنها تحمل شيئاً من العذاب الذي يعانيه، وتخفف عنه بعض الضغط النفسي الذي ينأى تحته.

مرة أخرى عاد يقول:

أمي؟ هل سيكتب الله لي أن أراها مرة أخرى، وهي تقترب من الثمانين، وأنا أغذي القلب وأحقنه بمختلف الأدوية حتى لا يستتكف عن العمل فجأة، وينهي هذا الوهن المرّ إلى عالم الآخرة.

من يدري؟ ربما كان هذا آخر العهد؟.. الذكريات الملأى بالحياة قد تمضي مع هذا الوداع لآخر مرة! ربما...!

لماذا هذا التشاؤم؟ الدمع يفتح له - أحياناً - كوة صغيرة يتنفس من خلالها بعد هذا الضيق المتعاظم، وتخفف بعض العناء.

كل الأسئلة تصطدم بجواب واحد: لا أدري، أمه، إخوته، أولاد إخوته حياته وذكرياته، العودة إلى بلدته وبيته، ودفاتره، والحقول والأشجار وأصوات العصافير، وصياح الديكة.... الجواب لا أدري!!

وهل هناك أصعب على المرء من هذا الجهل والحيرة التي لا تترك له سبيلاً لتغيير هذا الوضع النفسي الذي هو فيه؟

هناك في بلده تغيرت الأمور كثيراً، الطرقات والبساتين والأبنية والناس، نعم الناس الذين عاش بينهم تغيروا: تفرقت الأسر، وتبدلت العادات، وتغيرت عقول الناس وقلوبهم، وأصبح هم الفرد أن يحصل على المال ليعيل أسرته، أو يزيد من ثروته، أو يرضي شهواته. لم تعد هناك روح الأخوة، والألفة، والتعاون، والقرابة، والجيرة...

وهذه البقية التي يراها الإنسان عند الكبار، أو بعض الصغار الذين لم تفسدهم أعاصير هذه الأيام أصبحت كالتحف القديمة

الغريبة، هي بقايا أمور يحتفظ بها بعض الناس للزينة والندرة. ولكنها لم تعد مستعملة في المجتمع الحديث وأسواق حرية الإنسان المعاصر!!

المجتمع الريفي الذي ملأني بالسمو والسماحة، والأصدقاء الأوفياء الذين عشت بينهم، والذكريات التي تحمل صورة العائلة الكبيرة وهي تعيش في وئام وألفة، رغم ما كان يحصل بين أفرادها من خلافات أو خصام، ولا تعدو أن تبقى على السطح، ومحال أن تغوص في الأعماق ليظل أبناء البلدة، أو الحي في وئام كأبناء العائلة الواحدة. هذه الصور تكاد أن تكون قد اختفت... حكايات كثيرة، وحوادث غريبة، كلها تمطر هذا القلب بالمطر المر، والسحاب الأسود، وتملأ النفس بالحزن الكئيب... كيف تبدَّلت الحياة،وكيف انفرطت العائلة الكبيرة؟ بل كيف تفسخت روابط الأسرة الصغيرة، فجفت المشاعر ويبست القلوب، وتحجرت العقول، وفقدت الأسماء معانيها!!

كل ذلك حدث عبر هذه السنوات المرة وأنا بعيد عن موطن الذكريات. آه، هل ماتت بلدتي؟ هل ماتت الطرقات، وتهدمت البيوت، ويبست الأشجار، وودعت أسراب السنونو أجواء الحقول الحانية؟

آه... لماذا أبكي إذن....؟ وماذا أبكي؟

عندما أعود إلى موطن عملي، سأغرق مرة أخرى في مشكلات العمل، وعشرات المعاملات والدراسات، ومئات الأوراق، سأشهد كيف يتخلى المرء عن إنسانيته لكي يستمر في الحياة، وينال الراتب، ولكي يلتقط الأنفاس عبر الأجواء الحارة القاحلة... ولربما أنسى هذي الدموع، وإذا لم أستطع النسيان، فلن أجد وقتاً للدموع الجديدة، وقد لا أجد دموعاً تعرف معنى البكاء، وتسعفني بشيء من الحنو الإنساني...!!

هل هذا صحيح حقاً؟ أم أنني أعيش في برزخ خارج حدود الإنسانية، خارج حدود الكرامة الإنسانية، والأحياء المكرمين؟

وهل أستطيع الحياة حقاً في مثل هذا البرزخ القاسي؟

لا أدري...! ولكنني أحس أن الإنسانية تموت في عالم من القهر، والزيف، عالم مكبل بالشبكات والدولارات، والحسابات والبرامج، والمشاريع والدعايات والأضواء، والإغراء والجنس. عالم ينسلخ فيه المرء عن إنسانيته، يضحك ـ حين يضحك ـ من فكين آليين ـ ولكنه أبداً لا يستطيع الابتسام، ولا يستطيع الفرح، وربما لا يعرف الفرح، فالفرح يحتاج إلى إحساس بالإنسانية، إلى عالم من الصفاء والحب والإخاء، وهناك لا يملك المرء هذا الإحساس.

إنني بحاجة إلى بيع إنسانيتي في سوق العمالة، سوق المجاملات والمديح العفن، سوق الزيف الجميل المرصع بالعبارات الرنانة، لكي تبقى لي حركتي، وتستمر أنفاسي بالتصاعد، ويسمح لي بحمل بطاقة الأجانب المسموح لهم بالعمل.

آه.... كانت بلدتي هادئة جميلة عذراء صافية.... لها قلب يحسّ ويضحك ويبكي، لها رئة تتنفس بالعطر، ويفوح من أنفاسها عبير الفل والياسمين والنارنج وزهور التفاح..... لها عيون تبصر، وإحساس وعواطف. كانت بلدتي تحتضن أبناءها بحنو وعطف ومحبة، وكانوا يرعونها بإخلاص وتعاون وصدق، وحين يسهرون ويسمرون تستدعي لهم القمر الساحر الضاحك والنجوم الدافئة اللامعة، والسماء الظليلة الهائمة ليكونوا معهم وبينهم روحاً من المحبة والصفاء والود. كانت تحوّل الكون من حولهم إلى مهرجان يتعاطف مع سمرهم، وإذا حزنوا

بكت معهم الأشجار والطرقات والأغنام والأبقار والعصافير، والسواقي الصغيرة...

بلدتي كانت عائلة متحابة، متعاونة، كان لي فيها أهل وأقارب، وإخوة.

أمي هناك، وبلدتي أمٌّ هناك أيضاً، دنيا من الحب الصادق الطاهر. وأبي - رحم الله أبي - ينبوع من العطاء الثر المتسامح - وجبل من الإباء والكرامة والرجولة.

وإخوتي: كل القلوب التي تؤنس المرء في كل الأحوال وتلبيه عندما يقول آه، وتحيطه بالمحبة والود.

بلدتي قتلتهاالغربة والوحشة والبعد، وعاشت فيها الثعالب والذئاب والغربان، وتجار القهر والعهر، بلدتي يبست أشجارها وبكت سواقيها حتى جفت.

تحدثني الأخبار، أنها صبرت وصبرت، وبعد أن عقها المسافرون وجفاها الغرباء، وتركوها تواجه الصروف والطيوف والأحلام الشاذة وحدها... نادت أبناءها فأجابوها بالأوراق النقدية، وخاطبوها بأنواع الشيكات الغريبة... وأمدّوها بكل ألوان الطلاء والزينة والإغراءات المسمومة....

بكت بلدتي وبكت حتى لم يعد عندها صبر، صمدت حتى لم يعد لديها عزم، فاستباح عرضها كل الشياطين والغرباء.... وضاع أبناؤها في بقاع الأرض بلا هوية....

جمعوا من الأرض كل أنواع المعادن، وشتى ألوان الزينة والمجوهرات، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا ظلاً حنوناً، لم يلتقوا عبر الترحال البعيد بشجرة الصفصاف، أو الحور، أو الجوز والمشمش والرمان. ولم يتعرّفوا أبداً بعدها على شجرة الياسمين، أو التفاح، ولم يتذوّقوا ثمراً حلواً، أو ظلاً حنوناً، أو عطراً ذا حنين.

وعندما رأوا شجرة، وظنوا أنها ستعوضهم عن بعض الظل الذي افتقدوه، وتحميهم - ولو لدقائق - من وهج الشمس الحارقة، لدغتهم بأشواكها الظامئة، وأدمت أيديهم، ومزقت ثيابهم، وركلتهم وقالت لهم: غرباء.

آه... الورود هنا جافة، ميتة، محنطة... أين الأنهار والسواقي والغدران؟ أين النهر والفواكه والورود؟ أين زهور الربيع، والحشائش الخضراء؟

هذا البريق اللامع الحار، لا يغني عن قطرة من قطرات الماء البارد كالزلال، لا يغني عن الساقية الضاحكة مع الحصى.

هذا البريق اللامع من فحيح جهنم...

أمي ودعتني... وذهبت... متى ستعود أمي؟ وهل ستعود؟ سأبكي يا أولادي... يا أحفادي.... سأبكي أمي، سأبكي أمي.

هل تعجبون لمن فقد كل هذا أن يبكي؟

أنتم لا تعرفون بعد معنى الدموع؟..

أنتم مساكين ليس لكم جذور....!!

فلماذا لا أبكي؟

تماثيل من الشمع

كلهم يستبشرون بالمرحلة الجديدة، تطور مشهود بارز يتحدث عنه كثير من الموظفين: الإدارة الصغيرة بموظفيها القلائل أصبحت إدارات ووحدات وشعباً. كان هناك مدير واحد، وشعبتان فقط. أما اليوم - بعد هذا التطور الكبير- أصبح لدى الإدارة الجديدة خمسة مديرين، وأكثر من عشرة رؤساء للشعب - فضلاً عن الوحدات الأخرى. تطورت الإدارة التي كانت راقدة، حقاً!! بل لنقل تطوَّر العمل وتوسَّع، وهل أدل على هذا التطور من أن المسؤولين فيها لم يجدوا عدداً كافياً من الموظفين ليسندوا إليهم رئاسة الشُّعَب الجديدة، حتى أصبح في الإدارة شُعب تقتصر على رئيسها فقط، وشُعب ليس فيها إلا أحد المتعاقدين من غير أهل البلاد.

وهناك شعبة لم يجدوا لها رئيساً ولا موظفين، مع أن المسؤولين استغلوا مجيء بعض الموظفين الجدد الذين يعملون بعقد محدد لإكمال الشُّعب، ومع ذلك لا تزال الحاجة قائمة إلى آخرين.

تطوُّر مدهش حقاً، قلَّ أن نجد له نظيراً في أي بلد في العالم، حتى في البلدان المتقدمة،هكذا ينبغي أن نطوي الزمن، ونسابق الأمم، ونتطوّر بسرعة، بسرعة، نعم سوف نكون - بعد حين - من بين الدول المتقدمة ونختصر الزمن، نختصر قرنين أو ثلاثة من الزمن ببضع سنوات بفضل الطاقات الوطنية الجديدة.

يا لها من قفزة رائعة!! هكذا كان المدير العام يتحدث عن المرحلة الجديدة.

وعاد المدير العام ينظر إلى خريطة الإدارة الجديدة المتشعبة التي رسمها أحد الموظفين الذين تعاقدت معهم الوزارة، ويحرك رأسه يمنة

ويسرة بزهوٍّ وإعجاب، ويشير بقلمه الفاخر إلى بعض النقاط في المخطط تأكيداً للتطور الجديد.

❋ ❋ ❋

كان محمد ينظر إلى مديره الذي يتحدث دوماً عن التطوّر والتحديث، واستغلال الطاقات، والتوسّع في العمل، ووضع الخطط والبرامج، ورسم اللّوحات وكتابة العبارات الزاهية، وهو حزين ومندهش معاً.

كل يوم يسمع هذه الأحاديث، ويقرأ اللوحات الملونة، والتوجيهات التي يصدرها المدير، والرسومات التي يعلقونها على الجدران.

يفكر طويلاً، ويغرق في التفكير كلما رأى جديداً حتى يشعر بالصداع يمتلك رأسه، وينتهي بزفرات حارة: (لا حول ولا قوة إلا بالله) وهو يتمتم: هل أصبحتُ عاجزاً عن فهم ما يحدث؟ تطوّر، وتطوير!! يا للعجب!! لقد فقدت الكلمات معانيها في هذا العصر.

❋ ❋ ❋

قبل أسبوع كانت هناك جلبة وحركة دائبة: أوراق، وخرائط ولوحات، واجتماعات في غرف المدير، وبما أن (محمداً) أمضى سنوات طويلة في هذا العمل، ويعرف كيف تسير الأمور في الإدارة وكيف يفكر أكثر المسؤولين فيها، وما هي الأشياء التي تثير اهتمامهم وتدفعهم لمثل هذه الجلبة، فإنه لم يكترث لما رأى في أول الأمر، ولم يلتفت إلى الأوراق واللوحات والمطبوعات الجديدة التي تتحدث عن هذا التطوّر للإدارة المتنامية، ولكنه بدأ يشعر

بشيء من التوتر حين ازدادت الجلبة والضجة والاجتماعات، وأصبحت الإدارة في حالة الشلل التام، لا عمل للموظفين إلا تعليق اللوحات، والتحدث عن التقسيمات الجديدة، وشرب المرطبات، والغياب عن العمل.

ومضت أيام، ثم صدرت التوجيهات بانتقال الموظفين جميعاً إلى مقر الإدارة الجديد.

كان المدير ينتقل من غرفة إلى أخرى وهو يوجّه الموظفين للإسراع في الانتقال وعلى وجهه علائم الفرح والانتصار، إنه كان يشعر بأنه يجتاز قرناً من الزمن في هذه الأيام، سوف يودّع عالماً ماضياً متخلّفاً أو نامياً هنا، وينتقل إلى عالم جديد، حديث، مليء بالتطور والإبداع، والأحلام والتقدم.

كانت علائم النّشوة والزّهو والارتياح بادية على كل أعضائه، وحيث أنه كان مليئاً بالمعاني تلك، فقد كان يوجه الموظفين أن يتركوا كل شيء قديم هنا:

اتركوا الكراسي، والمناضد، والخزائن، و... لا تأخذوا شيئاً، في المقر الجديد أُعدّ كل شيء ليتناسب مع الوضع الجديد، يجب أن نترك كل شيء هنا، ولا نأخذ إلا المهم... لأننا نمارس ـ حقاً ـ التطوير المنشود، لذا ينبغي ترك الماضي والركود...

❋ ❋ ❋

مكان فسيح، طابق كامل من هذا البناء الواسع. كان مثله في السابق يتسع لموظفي وزارة كاملة، أما اليوم فهو للإدارة هذه وحدها، يا لبعد المدى الذي بلغناه.

الموظفون الجدد فرحون، أحد هؤلاء الذين التحقوا بالعمل قبل شهرين بعد تخرجه من الجامعة، كان يقف ويتحدث بكل ثقة.

هكذا ينبغي أن يكون وضع الموظف، المواطن، له منضدة فخمة تليق بمكانه، وأدوات، وهاتف و.... أين أمريكا وأوربا واليابان؟؟

لترى حالنا، وكيف أصبحنا. يتحدثون أن المدير هناك يجلس في غرفة لا تكاد تتسع لمنضدته، ها!! أين المتشدّقون بالحضارة والتقدم، ليأتوا وينظروا إلى قيمة المواطن هنا، وقيمة الموظف، وليتعلموا كيف يكون التطوّر السريع، تطوّر مذهل يليق بهذا الزمن الصاعق، زمن الصواريخ والحاسبات واللايزر:

منضدة عريضة فخمة، أدراج كثيرة. على الجانب الأيسر للموظف منضدة أخرى أقل ارتفاعاً من الأولى، وعليها جهاز هاتف يسمح للموظف أن يتصل بمن يريد، ولا ينقطع عن العالم أثناء الدوام الرسمي ليظل نشيطاً فرحاً، متجدداً. هل هناك مثيل لنا في الدول المتقدمة؟

وفي الطرف الآخر من الغرفة وضعوا خزانتين لامعتين، ينعكس الضوء على زجاجهما ولونهما الزاهي الشفاف، وتصلح كمرآة لإصلاح هندام الموظف.

غرفة مستقلة، وهاتف وكراسي فخمة للضيوف، هكذا يكون العمل، وحفظ حق الإنسان، وتكريم المواطن، وحفز همة الموظف الجديد.

لا بدّ من توفير راحة الموظف، وتأمين كل الخدمات له، ليظل مرتاح النفس يشعر بأن كل رغباته مُستجابة حتى لا تتعقّد لديه الأمور من الأيام الأولى لبدء العمل الوظيفي، فيجافيها ويكره العمل.

نعم أمور نفسية قد لا يدركها كثيرون، وهي مراعاة حقوق هذا الموظف المواطن قبل سؤاله عن الإنتاج والعمل، إنه تقدم حقيقي في المفاهيم والأفكار والعمل في هذا البلد النامي، بل المتقدم المتطور، وحفظ حقوق المواطن، ورعاية الموظف.

* * *

خرج محمد من الغرفة بعد أن سمع حديث هذا الشاب، وراح يبحث عن مكان يتنفس فيه بعمق، كاد يحس بالاختناق، بدأ يردد (لا حول ولا قوة إلا بالله). هل نحن في وعي، أم خارج دائرة الوعي؟

نحن في عصر الصواريخ والذرة والحاسب الآلي... أمريكا تجوب بحارنا وتتكئ مستريحة على شواطئنا، بالأمس قرأت عن مناورات مشتركة في ثلاثة أماكن من بلادنا الإسلامية النائمة، أسعار البترول ما زالت تتدنى حتى أصبحت قريبة من كلفة استخراجها!! كوارث اجتماعية وفكرية نسمع عنها في كل مكان من عالمنا، القتل والتشريد والإرهاب، اتهام المسلم بالتطرّف، وملاحقته باسم الإرهاب، الديون الضخمة التي تتحدث عنها الأنباء العالمية لدولنا المختلفة الضائعة، التي أصبحت تطال كل فرد.

اليهود الذين يسرحون ويمرحون في دروبنا ومدننا، وفنادقنا وأفكارنا.

المخططات التي تنفذ بتبجح من قبل أعدائنا (الأصدقاء) دون خوف منا أو مواربة...

لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم مسح دموعه التي تساقطت دون أن يدري، وراح يتوارى حتى لا يراه أحد.

* * *

صعد أحد المديرين إلى الطابق الجديد ليتفقّد سير العمل قبل الانتقال إليه، فمر أمام الغرف الواسعة التي فُرشت أرضها وطليت جدرانها، واصطفّت فيها المناضد والخزائن، وعُلقت اللوحات والخرائط، ثم توجه بعدها إلى الغرف المخصصة له، ليطّلع بنفسه على سير العمل ومستواه، وليتعرّف على حجم المُنْجَز منه، لأنَّه ـ كما كان يتحدث ـ عملية التطوير والتحديث ليست سهلة، لا بد لها من متابعة ميدانية لكل صغيرة وكبيرة حتى تتغيّر الصورة القديمة تماماً.

هنا مكان المنضدة الجديدة... مناسب ... الجدران ما زالت بحاجة إلى عمل: ... طلاء... تلميع... (الديكور) لم ينته بعد. هناك لا بد من إتمام تغطية الجدران حتى السقف بالخشب المصقول...

عملية الانسجام مهمة، لأنني ـ كما عرفت في أمريكا ـ فإن التأثير (السيكلوجي) مهم في تنمية المهارات، ودفع القوى الظاهرة والخفية لدى الفرد، وكلما كان الانسجام متحقّقاً، كان الخارج من الأداء أكثر... ولذا يحس الداخل إلى هذا المكان أن هناك فرقاً مهماً بين الجدران الإسمنتية المطلية بالدهان، والخشب الأملس المصقول الناعم، وهذا الفرق يماثل الفرق بين العقلية التقليدية التي لا تدرس أثر الشكل واللون والانسجام على العمل، والعقلية الحديثة المتطورة التي تحس بكل الانعكاسات الظاهرة والخفية، وتوظّفها لأجل تحقيق الانسجام اللاشعوري في سبيل معطيات قادمة...

فعلى سبيل المثال: عندما ينظر المدير حواليه، فيرى الجدار الإسمنتي المطلي باللون الأبيض، يشعر بالجمود، والسطحية والانقباض، وبالتالي بأنه لا حركة، ولا طموح ولا تقدُّم.

في الإنجاز الجديد الذي تحقق في مثل هذه الغرف سوف يشعر بالانسجام بين المنضدة، والكراسي الفخمة: سعة المنضدة وكبرها ينعكس على بعد التفكير وعمقه، هذا الانسجام بين المنضدة والخزائن والجدار، مع التنوع والتباين ـ أحياناً ـ يخلق حركة داخلية وخارجية منسجمة، وسعة التطلع إلى الغد، وعمق النظر في الأمور!!

المدير سوف يشعر بالراحة، الباب لا يُفتح إلا بإذن المدير.

ومدير المكتب، بل (السكرتير) سوف يكون يقظاً في الغرفة المجاورة، لا يسمح لأحد بتعكير صفو التفكير، أو قطع مكالمة مهمة، أو متابعة البحث والتأمل.

هناك في الركن المقابل حمّام فاخر حديث، وروائح منعشة، تتيح للمدير الاستجمام، وتجديد النشاط.... وهذه (المقصورة) الخاصة بالراحة، أو شرب القهوة أو غير ذلك، تدفع إلى مزيد من البعد النفسي.

كل هذه الأمور، ولا سيما هذه المنضدة والخزائن المتميِّزة، سوف تُشعر كل من يدخل إلى هذه الغرفة، أنه يدخل على المدير العام، وسوف تتحول أحاسيسه رويداً رويداً إلى نوع من التقدير والشعور بالاهتمام والمسؤولية. كل موظفي الإدارة سوف ينتابهم هذا الإحساس، وتتعاظم لديهم المسؤولية عندما يدخلون إلى هنا. إن هذه الألوان ستتفاعل في داخل الواحد منهم وتتعانق مع الشعور بالبهجة والإعجاب والإكبار والاتساع، وسيرتقي ـ بالتالي ـ بالتفكير ليكون على مستوى الجهاز والآمال التي نريدها من هذا التطوير، سوف يؤول هذا إلى عمق في الفهم والعمل والمسؤولية.

إننا بحاجة إلى جرأة في إحداث هذه التغييرات، لنقف مع القرن الواحد والعشرين في مصاف أرقى الشعوب، لأننا لسنا أقلّ شأناً منهم. كل أقطار الدنيا ترسل لنا أبناءها ليستفيدوا من هذا البلد، لا تهمُّ الغاية أو الهدف من مجيئهم، ولا يهم الظاهر في أنهم يأتون بطلب منا للقيام بأعمال تحتاج إليهم، وبالنتيجة هم يأتون من أجل المال، فالمال عصب الحياة، ومحرك العقل والعلم والاختراع، واختراق المجهول. ولذا فإنهم عندما يأتون إلى هنا يفتحون أبوابهم وعقولهم على العلم، والتقدم والحضارة.

إنهم يعملون تحت مسؤوليتنا، ونمنحهم الرواتب والمكافآت - ولو كانت قليلة - ونستخدمهم بالطريقة التي نريد. ولو لم يكونوا بحاجة إلينا، وإلى خبراتنا، وتقدمنا لما قَدِموا إلينا!!

ولو لم نكن في مكانة تؤهلنا للقيادة والتوجيه، والتخطيط لما جاؤوا إلى خدمتنا أيضاً!! إنهم يأخذون العلم، ويتعلمون التقدم والحضارة في بلادنا.

بعض الناس يتنكَّرون لهذه الحقائق، بل يحسدوننا على هذه المكانة، وكم أتمنى أن يعي المواطن - كل مواطن - هذه الحقيقة. ويحسّ بالمسؤولية في نشر الوعي، وبثّ هذه الأفكار، والفخر بها.

المواطن: هذه الكلمة العذبة، تعني الكثير. إنه مجرد كونه مواطناً فإنه يدل على مستوى رفيع من التطوّر والتقدّم والمسؤولية.

وأنا بحكم خبرتي وشهادتي العالية، ودراساتي - الأكاديمية - وجولاتي في بلدان العالم المتطور (أمريكا وأوربا واليابان). أقول بكل

فخر وثقة: إن المواطن - أياً كان - وإن لم يكن يعرف العلوم المختلفة، أو يجيد استعمال الأشياء الحديثة، هو أرقى من أي إنسان آخر في هذا البلد. والواقع أقوى دلالة من كل برهان آخر، وأثْبَتُ من النظريات والدعايات والدراسات.

ابن البادية - هنا - يملك مؤسسة كبيرة، وسيارات ومعدات حديثة، وأجهزة اتصال متطورة، وهو يديرها بكل هدوء، بل بأقل كلفة، بكلمات قليلة وحركات محددة بحنكة ودراية عجيبة، ويستخدم لديه أصحاب الشهادات والتخصصات، ومن كافة الجنسيات، والمستويات، ومع ذلك ينجح ويربح الكثير، ولا يستطيع أحد أن يتجاوز هذا الرجل العادي البصير!! بل كثيراً ما نراه يطيح بآمال كل العاملين معه، من أصحاب الشهادات والخبرات الأجنبية، ويخرجهم بعد انتهاء مشروعاته الناجحة أصفاراً، تأكلهم الحسرة والندامة والذل، ليس لهم إلا ما يرى أنه يستحقونه فقط، ولا يأخذون إلا ما يمتنّ به عليهم.

هذه بحدّ ذاتها مهارة، بل مهارة وخبرة وحِنكة، ونجاح في إدارة الأعمال. إنها تقدّم حقيقي، تقدّم عملي نادر، لا يحتاج إلى شهادات!! ولديَّ عشرات، بل مئات الأمثلة عن مثل هذا الرجل.

المؤسسات والشركات والأعمال الكبيرة والصغيرة تزخر بمئات الشواهد على حنكة المواطن وخبرته، ولذا علينا أن نُكْبِر فيه هذه القدرة الذكيّة العجيبة في استخدام طاقات الآخرين، وعقولهم، واستنفاذ جهودهم بأقلّ التكاليف.

المهم أنني سوف أنتقل إلى هذا المكتب الجديد بكل محتوياته وغرفه وملحقاته، وسوف يقفز العمل - بهذا الانتقال - إلى أفق جديد، وتطوّر يثير كثيراً من الإعجاب والتعجب.

❋ ❋ ❋

دخل المستخدم العجوز أبو صالح إلى غرفة المدير العام بعد أن استدعاه بواسطة نقرات محددة من الجرس الكهربائي، وعندما قابله المدير قال له بصيغة الأمر:

اجمع لي الموظفين جميعاً خلال عشر دقائق في مكتبي هنا... أسرع ولا تتأخر.

استدار أبو صالح بهدوء وهو يتمتم: لا حول ولا قوة إلا بالله.

كم كنا مستريحين وأنت غائب ـ يا سبحان الله ـ لا نراك في الإدارة إلا بضع ساعات في الأسبوع، ومع ذلك تُشغل الدنيا بطلباتك وأوامرك، ويا ليتها كانت طلبات ذات فائدة أو للمصلحة. كلها أمور تخصّك: خذ لي هذا الشيك للبنك وأدخله في الحساب، ادفع لي هذه الفاتورة، اذهب بهذه الأوراق إلى مكتب شركة فلان بن علان، اشتر لي كذا، أوْصِل لي هذه الأغراض للبيت، خذ هذه الجرائد للسيارة. اذهب أنت وعاملين من عمال النظافة واغسلوا السيارة... وهكذا. ولكن.. خيراً... اليوم تغيّرت الطلبات!! مالك وللموظفين؟ اتركهم يشتغلون ولا تضيّع أوقاتهم، ولا تزعجهم بطلباتك، يا سبحان الله. هذا صاحب شهادات ومركز ويقبض آلافاً مؤلفة.

كان أبو صالح يتمتم بهذه الكلمات، ويحدّث نفسه وهو ينتقل من غرفة إلى أخرى ليبلغ الموظفين أوامر المدير العام، لقد دخل ستّ غرف، ولكنه لم يجد غير أربعة موظفين: محمد عبد الله ومحمد وطلال، وياسين، ونوح، أما بقية الموظفين مثل مساعد، ومسعود، وصالح، وعبد الاله، وغيرهم، فلم يجد أحداً منهم.

وعاد أبو صالح ليخبر المدير بأنه نفّذ ما طُلب منه، وذكر له أنه لم يجد غير أربعة، ثم أغلق الباب.

آه من هذا المدير، إنه يشبه مسرحية مضحكة رأيتها في الرائي (التلفاز) قبل مدة، يا له من رجل طريف، يدعو إلى الضحك.

له صوت، وضجة وليس له فعل، هكذا كان أبو صالح يحدث نفسه بعد أن خرج من غرفة المدير. لقد تعلّم كثيراً أثناء خدمته الطويلة، وسوف يتعلّم أكثر هنا.

❋ ❋ ❋

كان المدير العام قد أخذ وضعه فوق الكرسي الدوار، وراء المنضدة بعد أن أصلح من وضع الكرسي الذي يرتفع أو ينخفض حسب رغبة صاحبه، لقد رفع الكرسي حتى أصبح يُرى وكأنه إنسان طويل القامة، يرتفع صدره، وجزء من بطنه فوق المنضدة، ويطل من علٍ على الموظفين الأربعة الذين حضروا إلى غرفته وجلسوا على الكراسي المقابلة للمنضدة.

وراح المدير العام ينظر بين حين وآخر من طرف عينيه إليهم ثم يتشاغل بتقليب بعض الأوراق بين يديه، أو فتح الأدراج والنظر إلى بعض ما فيها.

أما الموظفون فقد كانوا بانتظار ما يريده المدير العام، وراح كل واحد منهم يفكّر بما سوف يقوله، أو يصدره من التعليمات الجديدة.

أحدهم - ظن أنه جمعهم لأنه سوف يودّعهم - وأنه تبلّغ قرار نقله فأراد أن يتحدّث معهم قبل الانتقال، ويتحدّث عن الإنجازات السابقة، والمهام الرفيعة التي تنتظره في الوظيفة الجديدة.

ولكن الثاني - وقد كان ميالاً للدعابة، وعارفاً بشخصية المدير العام - أشار إلى زملائه بيديه، بأنه لا شيء وراء هذا الاجتماع، فقط أراد أن يؤكد لهم أنه المدير العام، ويعرض لهم شخصه وراء المنضدة الفخمة والكرسي الوثير، وألمح لزملائه من خلال بعض الحركات في وجهه أن المدير خَطَر له خاطر في المنام، وجاء لينفذه اليوم.

* * *

نهض المدير العام من وراء منضدته الفخمة، واتجه إلى المنضدة الكبيرة المخصصة للاجتماعات، وجلس عند منتصف رأسها (لأنها بيضاوية الشكل، ولها رأس محدد لجلوس المدير) ثم نهض بقية الموظفين وجلسوا حول محيطها، مقابل المدير.

أصلح غطاء رأسه، وتلمَّس طرفاً من ثيابه، ثم بدأ الكلام بكثير من الدقة والاهتمام.

فقال: في الحقيقة إنني - كما تعلمون - أحب ألا يشتغل تفكير أحدكم، أو يستغرق في اهتمامات أو أعمال، أو أمور ذات طابع (استاتيكي) أو(روتيني)، أو كما يقولون في منطق العمل الوظيفي ــ الاشتغال، أو الانشغال بالمعاملات والأوراق.

هذه لا قيمة لها، أعمال ليست مهمة، وينبغي ألا نشغل أنفسنا بها، لأن مسؤوليتنا كبيرة ومهمة، وكل واحد يستطيع أن يقوم بمثل هذه الأشياء، لذلك لا ضرورة لأن نهتم بها، هي تأخذ جهد الموظفين ذوي الخبرات، والإدارات المهمة مثل هذه الإدارة بدون ناتج أو مردود حقيقي ذي قيمة معتبرة.

أيها الزملاء، يجب ألا نُعطي الاهتمام الذي هو كامن عند كلٍّ منكم، وهو نابع من تجارب وثقافة ومسؤولية للأعمال الصغيرة، ولكن الأهم عندي، والأهم للعمل التطويري، أو للتطوير في العمل، إبداعُ نماذجَ جديدةٍ، عملُ مشاريع وأفكار مبتكرة، ورسمُ خطط مستقبلية، على مستوى هذا الجهاز وعلى مستوى الفكر الابتكاري لهذا العصر الصاروخي. المهم أن يكون الانشغال بوضع أُطر صحيحة، ذات أبعاد مختلفة منطلقة للمستقبل، بحيث يجد كل عامل في هذه الوزارة، وكل متعامل معها نموذجاً يملؤه فقط، وأن يكون للمسؤول، أي كل مدير، أن يؤشر في حقل من الحقول وكفى، بدون أن ينشغل في كتابة شيء، أو التفكير في طريقة الإجابة، والرد على المعاملات والاستفسارات. أتمنى أن نصل إلى الوقت الذي لا يجد فيه أي عامل في هذا الميدان طريقاً للسؤال أو الاستفسار وكل هذا بفضل همتكم ـ وخبراتكم الطويلة، ذات البعد التطويري والرؤية المتعمقة المستقبلية الملائمة للعصر.

علينا ألا ندع فرصة للعاملين في هذا الميدان في المناطق والمدن والقرى لكي يكتبوا ما يريدون ليشغلونا بالأسئلة والاستفسارات، العلم أصبح رموزاً، لا حاجة للحشو والكلام الكثير. انظروا إلى هذه اللوحة أمامكم، إنها تلخّص مهام الإدارة ومسؤولياتها وخططها، أليس هذا إنجازاً مهماً؟.

وبالمناسبة، كنت أتمنى أن يكون بقية الزملاء هنا، لكي نستفيد من رؤيتهم وأفكارهم، ولكني أعرف أن الذين غابوا لديهم الوعي الكافي، والإحساس بالمسؤولية، والإلمام والخبرة وسعة الأفق بما نتكلم، وبمهام الإدارة، وهم - كما تعرفون ونعرف جميعاً - لم يتغيّبوا إلا لأشغال أهم - ولا شك - وهي جزء من عملية التطوير التي نسعى إليها، وأنتم - كما تعرفون - تدركون ذلك.

قلت: أشغالهم التي غابوا من أجلها أهمّ من هذه القضايا التي اجتمعنا من أجلها، ولكي أكون أكثر دقة، أقول: إن القضايا التي نتحدث عنها اليوم معلومة لديهم، ومن هنا لا مانع من انشغالهم بأخرى كسباً للوقت، ولكن أحببت أن أطرحها أمامكم لكي يزيد اهتمامكم بها، لأني أعرف أن بعضكم يستغرق وقتاً طويلاً، في النظر في المعاملات، وإعداد الأجوبة، والردود على المعاملات، أليس كذلك يا أستاذ محمد، بارك الله بك؟

تنبه الأستاذ محمد إلى هذه الإشارة، فغالب نفسه كي لا يضحك أو يبكي، سيان في هذا الموقف، فالغائبون عن العمل، والعاطلون - كما قال المدير - غابوا عن العمل من أجل أمور أهم، وأن القضايا هذه معلومة لديهم، شيء يدعو للبكاء، أو الضحك أو كليهما معاً!!

تابع المدير كلامه بعد أن استجمع بعض الأفكار الجديدة، وقال: والآن لننتقل إلى البرنامج الجديد الذي أراه خطوة مهمة في انتقال هذه الإدارة من مرحلة إلى أخرى، في طريق التطوير الذي نريد، أو طريق تخطّي الواقع إلى المستقبل، إلى الطموحات والقرن الجديد.

وتعلمون أننا سننتقل إلى الموقع الجديد، وهو - بدون شك - يمثل صورة رائعة من التطور الذي خططنا وسعينا إليه، وربما كنتم تسألون

سابقاً ماذا يفعل المدير العام؟ وبماذا ينشغل؟ ولماذا لا يهتم بالمعاملات اليومية؟ ولماذا لم يكن في غرفته لأيام كثيرة، ومتوالية أحياناً؟

معكم الحق بهذه الأسئلة، ولكن الطّموحات الكبيرة تحتاج إلى تضحيات وأعمال واهتمامات، كالاهتمامات التي كنت أستغرق فيها وأبذلها ولا تدرون عنها!!...

❋ ❋ ❋

كان محمد أثناءها مستغرقاً في تفكير حزين مؤلم، حاول أن يصغي إلى كلام المدير العام، ولكن الإصغاء زاده ألماً وحزناً ومرارة. كانت الكلمات كأنها صعقات تيار كهربائي عنيف تتغلغل في أعصابه وخلايا جسمه ويجري في دمه، لم يفهم شيئاً، ولم يستطع أن يلتقط من حديث المدير العام جملة مفيدة، أو عبارة ذات معنى، تذكر حركات زميله وإشاراته عندما قال لهم من خلالها أن المدير العام خطر له خاطر في المنام وجاء لينفذه اليوم، وكاد أن يضحك، لولا أنه سمع المدير وهو يتكلم عن التطوير، ويعلل ويشرح.

ابتعد الأستاذ محمد في تفكيره، وسافر بعيداً بعيداً عبر الزمان والمكان، في الماضي، والحاضر، في الشرق والغرب، في الفكر والعمل، في السياسة والواقع، في العقيدة والسلوك، ولكنه كان يشعر بالمرارة أكثر وأكثر لأنه لم يجد رابطاً يربط ما يسمعه من هذا المدير وكل ما مر في فكره.

كان يشعر أن الدنيا كلها تنهال على دماغه بمطارق، وصواعق عنيفة، بل أحسّ في بعض الأحيان أن ذئاباً جائعة متوحشة، وثعابين

سوداء سامة تحيط به من كل جانب، وبدأت تنهش من بقايا جسده المحطّم، كان يرى وكأن الأعداء أصبحوا يتغلغلون في دماء أبناء هذا المجتمع. ونظر إلى المدير العام، وفي عينيه أبعاد السنين الطويلة من الضياع والتمزّق لأمته التي أصبحت مرتعاً لكل الأوبئة، وطعمة لكل المتوحشين؛ ومسرحاً للتافهين العابثين، والأعداء الطامعين.

❋ ❋ ❋

كان المدير مستمراً في عرض برنامجه:

هذا الانتقال، والموقع الجديد، يعطيكم رؤى جديد، ويرسم لكم خطوات مما كنا نوده للمستقبل، ويضع على أرض الواقع معالم الخطط المستقبلية وبرامج التطوير، التي ترفع وتيرة العمل إلى آفاق العطاء المتفاعل على الدوام، العطاء الذي يتخطّى الأشخاص وقدرات الخبرات السابقة!!..

كان واضحاً أن المدير كان يبذل جهداً في اختيار ألفاظه وصياغة الأفكار بهذه الطريقة وحشر الكلمات المضافة عن التطوير والتحديث ولو لم يكن لها معنى أو دلالة، أو رابط يربطها، ولذلك بدت على وجهه علامات الجد والتعب، وبدأالعرق يتصبب منه رغم برودة المكان، ثم تابع قائلاً:

والمهم - لا نريد الاستغراق في وصف البرنامج - بل نريد أن ندخل إلى تفصيل خطواته وأستطيع ببساطة أن أوجزها لكم بمايلي:

١- إكمال عمل الخشب المصقول، وما يلزم ذلك في مكتبي الجديد وملحقاته: من صالة الاجتماعات الكبيرة، والصالة الصغيرة، والحمام، والاستراحة، والسكرتيرة، وغرفة المستشارين والسائق وغيرها.

وهذا - كما تعلمون - يحتاج إلى ملاحقة ميدانية، وإشراف على حسن وسرعة التنفيذ، وعدم التقصير، وعدم إفساح المجال أمام العاملين، والمتعهدين بالتباطؤ أو عدم وضع كل ما يتطلبه العمل من مواد وإتقان.

٢- إكمال فرش الأرض بالسجاد المناسب، الذي يمثل من حيث اللون والشكل، والكيفية، والسماكة - ذات التجاوب المطلوب لسير العمل والإحساس بالانسجام وراحة الضمير، واستعداد الموظف، بل إحساسه بحساسية أفضل دون عناء، أو قلق نفسي، وبما يتناسب ويتماشى مع المواصفات الجيدة الحديثة.

٣- اختيار المنضدات والخزائن، وتعليق اللوحات، وكتابة الشعارات، وترقيم الغرف، ووضع الهواتف في الغرف التابعة لمكتبي.

- تركيب الهواتف المخصصة لمكتبي، مع جهاز التلفزيون والفيديو وآلة تصوير حديثة لتساعد على الإشراف الميداني الجاد للبرامج المستقبلية للتطوير، ولا تنسوا جهاز الحاسب الآلي أيضاً.

٤- التأكد من إتمام ما ينبغي إتمامه في المكان الجديد قبل الانتقال إليه، وسوف يكون هناك احتفال كبير يُدعَى إليه كبار المسؤولين في الوزارة وغيرها عند الانتقال - بعون الله - قريباً، وتحقيق الصورة التطويرية الجديدة.

- وأرجو - يا أستاذ محمد - أن تتوزعوا بينكم المسؤوليات وأن ترفعوا لي تقارير يومية - ولو أتعبتكم - عن المنجزات، وعن مراحل تنفيذ البرنامج التطويري المهم.

وأرجو لكم التوفيق ـ أيها الزملاء الفيورون على المصلحة ـ وأنا واثق من مقدرتكم، وقدراتكم، وخبراتكم وعطائكم وإخلاصكم.

ولا يخفى عليكم أن مثل هذه الأعمال الكبيرة التي لها أثر على مستقبل الأجيال لها أجر دنيوي وأخروي، لكل واحد منكم، وسوف تسجل لكم حسنات في صحائف أعمالكم، وبارك الله بكم.

❋ ❋ ❋

قال أحد الموظفين ـ عندما عادوا إلى غرفهم ـ أقطع يدي إن فهمتُ شيئاً مما قاله، بل أقطع عنقي إن كان المدير العام يفهم شيئاً مما يقول.

وضحك الموظفون.

بينما كان محمد يستغرق في عالم آخر.

أخذ ورقة، وأمسك القلم، ثم توقف قليلاً وهو يرحل إلى بعيد بعيد، رأى في التماعة الضوء الخافت جيوش الأعداء تتغلغل في كل بيت وتحقن الناس بمصلٍ يقلبهم أشباحاً أو مجانين، وأن تماثيل من الشمع المذاب بدأت تظهر هنا وهناك. ولمّا عاد إلى وعيه كتب ورقة استقالته.

ثم مضى إلى غرفة المدير العام، ونظر إليه بازدراء وحسرة، وسلمه الورقة ثم صفق الباب خلفه ومضى.

❋ ❋ ❋

مباحثات رسمية

وصل الوفد إلى مطار كَفْرِستان، فوجد رئيس الدولة وأركان دولته باستقبال الوفد، وجرى له استقبال رسمي وشعبي حار، وأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة للتحية، وللتعبير عن التقدير للوفد ولرئيسه المتسربل بالحنكة والحكمة وصواب الرأي، ونفاذ الكلمات، والبركات التي ينعَم بها شعبه، وتطلّعات السلام التي ينتظرها العالم منه.

❋ ❋ ❋

قبل أقل من شهر كانت إذاعتا البلدين الشقيقين تتباريان في تقديم البرامج المختلفة والتعليقات الحارة، وسرد الحقائق، وتقديم الوثائق بالصوت والصورة عن ضلوع كلا الرئيسين الشقيقين، والبطلين المناضلين، ـ اللذين حققا لشعبهما كل ما ينعمان به من حرية ورفاه ورفعة وكرامة كما تقول الإذاعة اليوم ـ عن ضلوعهما في مؤامرات وخيانات، وأعمال تخريبية، وجرائم في حق الشعبين، وارتباط مع الأعداء ضد المصالح الوطنية والقومية.

وكان المستمع الصامت في كلا البلدين يرى مسلسلات تحكي قصة الرئيس الآخر، منذ تسلمه للسلطة وحتى انتهاء مستقبله، وكلها تؤكد أنه جر المآسي لشعبه، وارتكب من الجرائم والخيانات ما لا يمكن نسيانه..

ويبدو أن هذه البرامج قد توقّفت تماماً قبل أيام من هذه الزيارات، وحلّت محلها برامج أخرى، أكثر فرحاً وتفاؤلاً، وهي تصور

مظاهر التعاون الأخوي والمحبة القلبية بين الرئيسين، وارتباط المصالح بين البلدين، مع عرض لمنجزات البطلين الخالدين، رئيسي الدولتين نحو شعبيهما وأمتهما الماجدة والعالم أجمع.

وكانت إذاعتا البلدين، ووسائل الإعلام الأخرى، قد غيَّرت برامجها وموضوعاتها، وبدأت تذيع وتنشر صوراً كثيرة عن أمجاد الرئيسين، وعن المشاهد الحية لاستقبال رئيس (شركستان) من قبل أخيه رئيس (كفرستان) وكلها تعبر عن التعاون الأخوي، والترابط العميق بين شعبي البلدين ورئيسيهما، وبين رجال الدولة والحكم بكلا البلدين، الذين بدوا اليوم في هذه الزيارة كفريق واحد متّحد، يعملون لهدف واحد وغاية واحدة.

❋ ❋ ❋

كان أفراد الأسرة ينظرون إلى الرائي (التلفاز) وهو يعرض صور الاستقبال الرائع، بهذه المناسبة، وكان الجدّ (أبو عثمان) يجلس في الزاوية البعيدة، وهو يتأمّل هذه الصور بنظرة غريبة، لم يكن عابساً، ولكنه لم يكن مبتسماً أيضاً. والصّغار حوله يشيرون بأيديهم إلى صور العناق، وتبادل التحيّات، ومراسم الاستقبال الرّسمي والشعبي الذي لقيه رئيس (شركستان) والوفد المرافق له من قبل رئيس (كفرستان).

سأل أمجد الصغير جدّه قائلاً: أليس هذا هو الرئيس الذي كان الرائي يتحدث عنه قبل شهر، ويقول عنه بأنه ظالم، وخائن، ومجرم؟ سكت الجد ولم يجب، وسكت الصغير أمجد، لأنه أدرك بأن جده لا يريد الإجابة، ولو لم يكن يعرف السبب.

وانتهت مراسم الاستقبال فأقفل أحد الأبناء الرائي، ثم توجّه إلى الجدّ الغائب عن عصره، وسأله أن يحكي لهم حكاية جميلة من حكاياته الكثيرة.

سكت الجدّ قليلاً وهو يستمع إلى مطالب أحفاده ورغبتهم في أن يقص عليهم قصة جديدة، ثم ابتسم واحتضن أصغرهم، وقال لهم اجلسوا لأقص عليكم هذه الحكاية، فقال:

يا أحفادي يا صغار، يا أولادي يا كبار، هذي حكاية غريبة، ولكنها بعد أن عشت هذا العمر أصبحت معروفة وقريبة، إنها حكاية الذئب والثعلب، وحياة الوحوش في البراري والغابة، وأنتم يا أحفادي أذكياء، تعرفون ما تعنيه الحكاية، فعليكم يا أحبابي بالإصغاء.

صاح الجميع ـ كالعادة ـ بصوت واحد: حاضر حاضر يا جدي، كلنا سنصغي للحكاية، وسنعرف ما تحكيه من رواية.

قال الجد:

الذئب ـ يا أحبابي ـ حيوان مفترس وشرس، قوي العضلات، وحاد الأنياب، سريع الركض، يطارد الفريسة حتى يمسكها فيخنقها ويتركها، ثم يعود إليها ليأكلها. وهو يفترس الحيوانات الضعيفة، ولكنه يحب افتراس الأغنام والماعز والخراف، وأحياناً يهاجم البشر إذا اشتدّ به الجوع.

أما الثعلب فهو أصغر من الذئب، وأضعف، ولكنه سريع وماكر وخداع، وهو لا يستطيع التغلب على الذئب، وأمثاله من الحيوانات بقوته، ولكنه بالحيلة والمكر ينجو من الذئب، ويحصل على ما يريد.

والذئب والثعلب عدوان، يكره كل واحد منهما الآخر، ويعلّمان أولادهما وأحفادهما هذا الكره، فإذا رأى الذئب أحد الثعالب طارده حتى يمسك به إن استطاع، ويقتله ويأكله.

وأما الثعلب فإنه يحيك المؤامرات على الذئب، ويحرض الحيوانات الأخرى عليه، ويعمل دوماً على التخلّص منه بالمكر والحيلة، وإثارة العداء بينه وبين بقية الحيوانات.

وفي إحدى المناطق الريفية التي تكثر فيها الحقول والبساتين، والأشجار، وتحيط بها الجبال والهضاب، حيث يعيش الناس البسطاء من الفلاحين عيشة هادئة، يتعاونون في زراعة الأرض، وتربية الأغنام، والماعز والأبقار، والدجاج، والحمام، والأرانب، ويأكلون مما تنبت الأرض لهم من الخضراوات والفواكه، وما تنتجه الحيوانات، والطيور من لبن، ولحوم.

مرت الأيام والناس في نعمة وطمأنينة، وحياة كلها بسط وراحة وسعادة، حتى نسوا أن هذه النعمة من الله، وأن عليهم أن يحافظوا عليها، ويشكروا الله على ما أنعم.

وذات يوم استيقظ الناس وهم يتحدثون عن اختفاء عدد من أفراخ الدجاج، وكانوا يتساءلون عن سبب ذلك دون أن يعرفوا شيئاً عن هذا الأمر.

وتكرر الأمر وازداد، وأصبح اختفاء عدد من الطيور أو الدجاج في كل يوم أمراً عادياً، وأصاب ذلك أكثر البيوت والمزارع التي يربى فيها الدجاج والطيور.

زادت حيرة الناس واضطرابهم لهذا الأمر، وثارت بينهم المنازعات، وصار بعضهم يتهّم عدداً من الشباب بسرقة الدجاج، بينما

رأى آخرون أن ذلك أمر مستبعد، لأن السّرقة عمّت أكثر البيوت، مما جعلهم في حيرة أكثر وأكبر، وبدأ الأمر يزداد، والحيرة تزداد.

أما الثعلب المكار، فلقد كان يعيش مع أولاده في وكر قريب من القرية، وصار يبحث عن طعام له ولأولاده، حتى رأى في ذات يوم مزرعة من المزارع في أطراف القرية، وكان فيها بيت يسكنه أحد الفلاحين، دار الثعلب حول المزرعة والبيت في المساء، بعد أن أوى صاحب المزرعة إلى بيته، فرأى بيت الدجاج، واشتم رائحة الطيور، فنوى أن يخطف من هذه المزرعة دجاجة أو طيراً لتكون وليمة له ولأولاده.

واستطاع بمكره أن يجد طريقة للوصول إلى الدجاج النائم، وأن يخطف واحدة ويمضي إلى وكره، فيأكل صيده مع أولاده، ثم يستريح. وصارت هذه عادته، ينام أكثر النهار، وقبل مغيب الشمس ينزل من الجبل، ويتوارى خلف الأشجار، ويبحث عن المكان المناسب لسرقة دجاجة أو طير أو أكثر من أحد البيوت. ولشدة مكره كان يلجأ إلى حيل خبيثة في اختيار الطريق الذي يسلكه، والطريقة التي يسرق فيها الدجاجة حتى لا يراه أحد من أهل القرية.

وظل على عادته هذه، بل أصبح أكثر مهارة في تحقيق غرضه، فمرة يأخذ دجاجة من بيت يقع شرق القرية، ومرة من بيت في وسطها، وثالثة في شمالها، وهكذا يختار أوقاتاً مختلفة، وطرقاً منوعة، ليظل قادراً على اقتناص الدجاج وسرقته.

أما أهل القرية فلقد زاد اضطرابهم وحيرتهم، وبدلاً من أن يتعاونوا بينهم لمعرفة ما يحدث لهم، ويجابهوا هذا الخطر، صاروا يتبادلون التهم بينهم، وتركوا التعاون والتناصح، وزاد الحسد والتباغض، وصار الواحد منهم لا يهتم بما يصيب أخاه أو جاره، ورأى بعضهم أن ترك القرية والانتقال إلى المدينة، أفضل من البقاء فيها، وهكذا فشلوا في مواجهة ما أصابهم، وشعر الثعلب أنه حقق ما يريد، وصار يسرح ويمرح في القرية، ويخطف كل يوم أكثر من دجاجة، واطمأن إلى أن حياته في القرية أصبحت سعيدة ومطمئنة، وأنه أصبح سيد الموقف لا ينازعه في ذلك أحد.

❋ ❋ ❋

ودوام الحال - يا أبنائي - من المحال، وأنتم تعرفون أن الزمن يمشي ولا ينتظر أحداً، والصغير يكبر، والكبير يشيخ ويموت، والدنيا تتغير، ولذلك فإن السعادة التي كان يشعر بها الثعلب بدأت تتغير، لأن أهل القرية أهملوا العمل في المزارع، وباع كثيرون ما بقي عنده من الدجاج والطيور، وهاجر بعضهم إلى المدينة، وأصبحوا فقراء، وضعفت هممهم، واستكانوا لوضعهم الجديد، وصار الواحد منهم يبحث عن أي عمل ليكسب منه قوته وقوت عياله، واختفت من حياتهم الطمأنينة، ولم يعودوا كما كانوا من قبل متعاونين متناصحين، بل أصبح كل واحد يهتم بشأنه الخاص، ولا يهمه ما يصيب الآخرين.

وبدأ الثعلب المكار يشعر بالقلق، ويبحث عن طريقة جديدة لتأمين حاجته من الطعام، بعد أن قلّ الدجاج واختفت الطيور من بيوت القرية،

وأصبحت مزارع كثيرة جرداء ليس فيها زرع ولا شجر، مما جعله عرضة لانكشاف حاله حينما يريد النزول إلى القرية للبحث عن طعام.

❋ ❋ ❋

وبينما كان الثعلب سائراً بين الهضاب المحيطة بالقرية ذات مساء، وهو يسعى للوصول إلى قرية أخرى مجاورة، وإذ به يُفاجأ بذئب أغبر، قادماً من القرية المجاورة، وهو يلهث من التعب، وتقدح عيناه بالشرر والغضب.

وفكر بسرعة بطريقة ينجو فيها من هذا الذئب، عدوه اللدود، ويأمن شرّه وبطشه، لأنه عرف أن هربه لن ينجيه، فالأرض وعرة، ومكشوفة، والذئب سريع يستطيع اللحاق به.

نظر الثعلب المكار إلى الذئب فتنبه إلى أن علامات الجوع والتعب تبدو عليه، وأنه ـ لا شك ـ يبحث عن فريسة ليأكلها بعد أن عانى طويلاً من الجوع.

فبادره الثعلب بالتحية والسلام، وتقديم كل علامات الاحترام والتبجيل والطاعة للذئب لكي يطمئن فلا يبادره بالقوة.

فرد الذئب التحية بكلمات بسيطة، وانتظر وهو يفكر في طريقة يمسك بها الثعلب، ويجعل منه وليمة له ولأولاده الجائعين.

فقال الثعلب: ما بال سيدنا المغوار هنا في هذه التلال؟ هل أصابه المرض، أم أن أمراً سيئاً ـ لا سمح الله ـ عرض له.

فقال الذئب وهو يبتسم ساخراً: لا شيء من هذا، وإنما الحياة هكذا، كلها تعب وجوع، قل ما عندك، ماذا تريد؟

أجاب الثعلب المكّار: ما عندي إلا الخير لك يا سيدي المغوار، لقد خرجت منذ ثلاثة أيام وأنا أبحث عنك بعدما عرفت ما أصابك، وأردت أن أعرض عليك أمراً فيه كل المصلحة لك ولأولادك، ويؤمن لكم كل ما تحتاجون إليه من الفرائس اللذيذة. لقد تعبت وأنا أبحث عنك حتى كدت أيأس من لقائك، ولولا أن الله أراد بنا خيراً، فجعلني ألتقي بك في هذا اليوم.

فتح الذئب عينيه وهو يسمع اسم الطعام، ووجه أذنيه نحو الثعلب ليسمع ما يريد أن يعرض عليه، إنه يخشى مكر الثعلب وغدره، ويتمنى لو يبطش به في هذه الليلة، ويذوق لحمه، بعد أن اشتد به الجوع، ولكنه خشي إن أظهر للثعلب شيئاً من هذه النية، أن يخسر صفقة أفضل وأحسن، ولذلك رأى من الأفضل أن ينتظر ويسمع من الثعلب ما دام بين يديه ويرى ما عنده، فإذا لم يعجبه ما يقوله، أو شعر منه بالمكر والخداع بطش به، وأنهى القصة معه.

والحقيقة - يا أولادي - أن الذئب في هذا الوقت كان ضعيفاً نتيجة بحثه الطويل عن الطعام، وجوعه الذي دام أكثر من يومين، ولذلك لم يسارع إلى البطش بالثعلب لأنه - أيضاً - خشي إن عرف الثعلب ذلك، عمد إلى الهرب، وربما لا يستطيع الذئب الإمساك به لما به من ضعف.

قال الذئب: هات ما عندك يا مكار.

أجاب الثعلب: سأكون صريحاً وصادقاً معك أيها السيد المبجل، وسوف أختصر الكلام، لأن الوقت ضيق، والظروف صعبة، وما أراه بادياً

عليك من التعب والجوع يدفعني إلى عرض الأمر بشكل واضح ومختصر.

قال الذئب في نفسه: عرف المكار ما بي، ويبدو أنه يريد حقاً أن نتعاون، وإلا، فإنه يستطيع الهرب.

قال الثعلب مستأنفاً كلامه: يا سيدي المغوار، إنني أقرّ بأنك سيد عظيم من سادات البراري والجبال، ولك عندي تقدير ومنزلة ومهابة، ولك من بين جميع الحيوانات المفترسة مكانة عظيمة، لا ينكرها إلا ظالم أو جاهل، وأعرف أن الظروف التي تحيط بهذه المنطقة أصبحت صعبة على جميع المخلوقات، فالقحط حلّ بالقرى، والمزارع اختفى أكثرها، والحيوانات الطيبة لطعامنا قلّت، وأبناء آدم أصبحوا في فقر وبؤس شديدين، ولم يعد لديهم ما يكفيهم لطعامهم، لقد ذبحوا ما كان عندهم من مواشٍ أو دجاج أو بط أو حمام وطيور، واستهلكوا كل شيء عندهم يصلح لطعامنا، مما كان له أثر سيء علينا، وصار كل واحد منا يهلك من التعب في البحث عن شيء يأكله، وهذه الحالة ستؤدي إلى صدام بيننا وبين أبناء آدم من البشر، وسوف يهاجموننا إذا رأوا أحداً منا، وقد يتعاونون لإيقاع الشر بنا، واصطياد أبنائنا، وحضرتك تعلم مكر ابن آدم وشروره علينا، وقدرته على حَبْك المؤامرات ضدنا، وإذا حصل هذا الصدام، وأصبحنا هدفاً لأبناء هذه القرى فسنفقد كل مواردنا، ونعجز عن اصطياد أي شيء مما بقي عندهم من المواشي والطيور والدجاج وغيرها.

- وما العمل إذن أيها الثعلب المكّار؟ هكذا سأل الذئب بشيء من الغضب.

- العمل يا سيدي العظيم، أن نتفق على خطة جديدة، ونتعاون بصدق لمواجهة هذه الحالة، وسوف أحضر لك كل يوم ما يكفيك ويكفي أولادك حتى نبدأ في اقتناص طعام جديد حسب الخطة، وتنفيذاً لمبدأ الصداقة والتعاون الذي أقترحه عليك.

ظهر على وجه الذئب شيء من الارتياح، فقال:

صحيح، صحيح يا ملك الذّكاء والدّهاء، هات ما عندك وأنا موافق.

قال الثعلب: الخطة يا سيدي - باختصار - تقضي بالتعاون فيما بيننا، وتبادل المصالح والمنافع، والاشتراك في الغنائم وتقسيمها بيننا بالعدل، فتأخذ أنت الثلثين، وآخذ أنا الثلث، وإذا زادت الغنائم لك حصة أخرى زيادة.

- انتشى الذئب فرحاً وغبطة، فقال: أكمل أكمل.

قال الثعلب: مهما اختلفنا يا سيدي المغوار، فإننا من أصل واحد، وفصيلة واحدة، وننتسب إلى نوع واحد من الحيوانات، ولنا أهداف كثيرة، وعدونا واحد، وغاياتنا مشتركة، وكلها تتعلق باقتناص المواشي والدواجن والطيور، وأكل لحومها، وشرب دمائها، وبناء مستقبل أولادنا، وتأمين حاجاتهم ورفاهيتهم، وتمكينهم من التحكم في المستقبل بحياة البهائم من الأغنام والماعز والأبقار والطيور والدواجن.

- هذا طيب، وهذا جيد، وهي خطة موفقة ومناسبة، بشرط ألا تخدعني أيها الذّكي الماكر. هكذا قال الذئب.

- أجاب الثعلب: يا سيدي، إن الذي يحيط بنا من الخطر ينبغي أن يزيل ما كان بيننا من الرّيبة والشك، وسوف أقدّم اليوم لك دجاجتين أو ثلاثة، وأبقي واحدة لي ولأولادي دليلاً على هذا التعاون.

● قصدت المزاح معك يا ملك الذكاء.

● استأنف الثعلب حديثه فقال: وسوف أدلّكم يا سيدي على مواقع المواشي في القرية، وعلى أماكن حظائرها، والطرق التي تستخدمها عند الذهاب بها إلى المراعي أو العودة، وسوف أدلك على الطرق الآمنة التي لا خطر فيها من بني آدم.

وبهذه الطريقة تكون لديكم الرؤية والمعلومات الدقيقة حول القرية والمواشي، وسوف تقومون باقتناص ما تريدون بسهولة ويسر. وأنا أقرّ لكم بسيادتكم، وحيازتكم وملككم لكل أنواع المواشي، كبرت أم صغرت، ولأولادها وأحفادها، وفي الوقت ذاته، أيها السيد العادل، تتركون لنا حرية التصرف والسيادة والفتك بالطيور والدواجن، فهي مناسبة لنا، وهي صغيرة الحجم، قليلة الدسم واللحم، وسوف نقدم لكم نصيباً منها أيضاً.

ونكون يا سيدي المغوار، سعداء، وشاكرين لكم، إذا وافقتم على هذه الخطة التعاونية، وعلى تبادل المصالح والمنافع، وتنسيق العمل ضد عدونا المشترك من البهائم وأسيادها من بني آدم.

● نفخ الذئب نفسه منتشياً، ووقف وقفة يقلد فيها ملك الوحوش، ثم قال: أنا موافق، موافق، أحسنت أيها الثّعلب الذكي.

● أضاف الثعلب: ولكي نبدأ بتنفيذ الاتفاق والخطة، تعال معي لكي أقدم لك عربون التعاون من الدجاج الذي عندنا، وأود أن نشكل لجنة من أولادنا لكي يتابعوا تنفيذ بعض ما اتّفقنا عليه.

● نعم... نعم، هيا، سوف آمر بتشكيل هذه اللجنة، وسوف نلتقي غداً.

. ومضيا معاً، عدّوين يتفقان على العدوان، وخرجت الذئاب والثعالب من أوكارها، وصارت تتعاون على افتراس ما تبقى من الماشية، والدواجن والطيور في القرى المختلفة.

❋ ❋ ❋

هذه هي الحكاية يا أبنائي.. والآن دعونا نتابع ما جاء من أخبار في الرائي:

كانت الأخبار كلها تدور حول الزيارة الميمونة لرئيس كفرستان مع مرافقيه، والحفاوة التي لقيها من أخيه وصديقه الحميم، وعدوه القديم رئيس شركستان.

وصدرت البيانات، وتشكّلت اللجان، وبدأ العمل للوصول إلى اتفاقيات لصالح البلدين.

قال الجد:

كفانا اليوم من هذه الأخبار، فإنني أشعر وكأنها تشبه الطعام الثقيل الذي يصعب هضمه، ثم أشار إلى أحد أحفاده بقفل الرائي.

فصاح الصغار: يا جدي حكايتك أجمل.

فقال لهم: ألا تريدون أن نجلس معاً لنأكل شيئاً نتعشّى به فلقد شعرنا بالجوع بعد هذه الحكاية.

الشجر لا يموت إلا واقفاً

ماتت أمي!! هكذا بسهولة قالوا: ماتت. نعم كنت حاضراً، ولكنني لم أصدق، وبكيت كالطفل الصغير، بكيت كثيراً وبحرارة، وكان بكائي مؤلماً، كدت أختنق... ولكني لم أصدق أنها ماتت...

❋ ❋ ❋

هكذا فجأة تغيب صورتها عن البيت، وتُنقل إلى المستشفى، وتحاط بالأجهزة والأدوات الطبية، وتوضع تحت المراقبة المشددة، قالوا: إنه القلب!!

القلب؟ ماذا في قلب أمي؟ إنه قلب حي طيب ودود، كل الناس يعرفون ذلك، كل الناس وجدوا فيه مسكناً هادئاً مطمئناً، لم يحمل حقداً لأحد، لم يبغض يوماً، ولم يضق بكل أعبائنا الكثيرة..

كنت - حين تضيق بي الدنيا على سعتها، حتى لا أعرف كيف أخرج مما أنا فيه من هم وحزن وضيق، أو مما أحمل من خوف وهم وحزن وضيق - كنت أجد أمي وهي تراني، فتعرف ما بي، فتناديني كالطفل الصغير، ثم تمسح على رأسي، وتكلمني بضع كلمات حانية، ثم تدعو لي بحرارة دافئة، وبعدها يعود لي الأمان والسعادة، وتنزاح عني - شيئاً فشيئاً - الهموم التي ساورتني، وأعود وكلي تفاؤل وثقة.

ماذا في قلب أمي؟ كل إخوتي من بنين وبنات يتعلقون في هذا القلب بحب وشوق، لأنهم يجدون فيه - دوماً - متسعاً لهم ولهمومهم، وظلاً ناعماً لحكاياتهم، إنهم يجدون فيه الرحابة والأنس والمحبة.

وأبي ... وهل يستطيع أبي أن يستنشق هواء الحياة النقي بغير هذا القلب الذي منحه الوفاء، وجعل بيته مقصد أهل الخير، ومنار كل القرى الجميلة التي تحيط ببلدنا.

مسكين أبي أصبح عاجزاً، فماذا سيفعل إذا قالوا له إن قلب ـ أمي ـ بدأ يتوقف...!

الجيران... الأقارب... أهل بلدي... كلهم يعرفون قلب أمي الودود الطيب، عرفوا فيه الصفاء والوفاء، والمحبَّة، ومنحهم ـ دائماً ـ الأنس، والود، والابتسامة الرضية. لقد كانت ـ أمي ـ معهم، في أفراحهم، وأحزانهم، وكنت أسمع الكثيرين، من شباب، وبنات ينادونها: يا أمي. لا تعجبوا، حتى دجاجاتنا، وخرافنا، كانوا يتمسحون بثوب أمي عندما يرونها، يرقصون حولها طرباً، يتطلعون دوماً إلى عطفها وحنوها.

قلب أمي كبير لم يضق بأحد، قلب أمي كريم لم يتوقف يوماً عن العطاء، قلب أمي رحب واسع، لم يضق بي يوماً، ولا بإخوتي، لم يضق ولم يتأفف، فماذا في قلب أمي اليوم؟

ولماذا يدّعون أنه قلب مريض؟

لماذا تتخيلون أيها الناس، وتحكمون على هذا القلب بالضعف؟

❋ ❋ ❋

ماتت أمي حقاً، كل من حولي يقول ذلك، كلهم يبكون.. وبكيت طويلاً، بكيت بكاء حاراً حارقاً، لأنني فقدت قلبها العطوف، وودها الصافي، وحنوها الدافئ، وعطاءها الصادق. ولكن هل أستطيع أن أصدق ما يقولون؟

عدت إلى البيت فلم أجدها... نعم لم أجدها، كان البيت كئيباً، والأصوات مبحوحة خافتة، ولم أسمع غير نشيج البكاء: أخي وأخي، وأختي، وأبي، وخالي، والصغار الذين لا يعرفون الموت أو الحياة، كلهم كانوا يبكون. لقد بدأ الصغار يصيحون بلوعة على جدتهم، وكلما سألوا واحداً نظر إليهم وبكى ولم يجب.

والدي بقامته الفارعة، وماضيه العتيد كبا نحو الأرض بانكسار، وانطوى جسده على نفسه وأخذ يبكي!

آه ما أصعب أن يبكي الرجل!

وبدأ الجيران والأقارب، وأهل البلدة يتقاطرون نحو بيتنا.

كل الحارات والدروب جاء منها الناس يسألون عن أمي، ويدعون لها بالرحمة والمغفرة، ويبكون.

يا سبحان الله! لقد ماتت أمي حقاً!

قلت لنفسي: كل الناس يموتون، وعليك أن تصبر.

❋ ❋ ❋

أمي كانت امرأة بسيطة طيبة ودودة، لا تعرف الكذب أو النفاق، ولا تعرف المظاهر والمجاملات. كانت تعطي بلا منّة، وتمنح الجميع ودّها وعونها، وحين تُحسن للآخرين تعطيهم وكأنها تأخذ منهم.

كانت تعمل بلا كلل، من مطلع الفجر إلى منتصف الليل، لا تهدأ أبداً ولا تستريح، والبيت كله يشتعل محبة وحياة وهي فيه، فإذا غابت كان السؤال على لسان الجميع: أين أروى؟

وكان الصغار والكبار ينالون من عطاياها، وودها، واهتمامها وابتسامتها، ولم تكن تنتظر من أحد أن يرد لها شكراً على معروف، أو ثناء على إحسان.

وسعادتها، كانت مجبولة بهذا الجهد الذي تبذله بلا كلل، طيلة عمرها وفي كل الأيام.

ولم أستطع معرفة هذه السعادة لأنني لم أجرب عطاءها. ولا أعرف كيف تستطيع أن تعطي هذا العطاء بلا تعب أو ضجر، وهي سعيدة مشرقة الوجه، لا تتأفف ولا تشكو، ولا تغيض ابتسامتها عن أحد!!

وعندما تنام سويعات قليلة في الليل، لا تهنأ براحة إلا إذا اطمأنت أن كل من حولها نام مطمئناً مستريحاً. وإذا لاح الفجر نهضت قبل الآخرين، حتى تستقبل يقظتهم بالحمد لله والشكر له، والدعوات الصالحات، وكلمات الترحاب الندية، والقهوة الطيبة.

هذا القلب لم يكن لنا وحدنا في البيت، لقد كان لأهل قريتنا المتسعة، نعم كل أهل القرية ومن جاورها، كانوا يعلمون أن أروى - أم صادق - امرأة طيبة تعطيهم وتعينهم، وتشاركهم في الأفراح والأحزان، وتظللهم بالحنان والود، ومشاعر الأم الصادقة.

والأطفال، كلهم كانوا ينادونها يا أمي... يأتون فرادى ومجتمعين، فتعطيهم الحلوى، والفاكهة، وتمنحهم بعض النقود، وتحفل بهم بالابتسامات.

لا أدري كيف ماتت أمي؟! كيف توقف قلبها فجأة كما يقولون!!

هؤلاء الناس جاؤوا يتقاطرون من كل نواحي القرية، ومن القرى القريبة والبعيدة، ودموعهم تنطق بالحب، يتحدثون عن أعمالها وعطاياها، وكرمها ومعروفها، وحنوها على الجميع.

كانوا يتبارون في الحديث عما كانت تقدمه لهم، فإذا ذكر أحدهم أمراً، سارع الثاني والثالث ليذكروا أموراً أكثر وأجمل من أعمالها الطيبة، وما يكاد أحدهم ينتهي من ذكر شيء عنها، حتى يغلبه البكاء.

ماذا أقول عن أمي؟

قبل سنوات رأتني أمي أغضب وأتضجر بعد أن قمت بعمل عاونت فيه أخي، وحرصت على إتمامه أكثر من حرص أخي على ذلك.

وعندما رأتني كذلك، قبّلت رأسي وقالت لي:

يا عامر لا تضجر من العمل، فالرجل الطيب يفرح عندما يعمل الخير للآخرين، ويسعد إذا رآهم فرحين، وكلما زاد عمله من أجلهم زادت سعادته. لا تنظر يا ولدي إلى ما يقابلونك به، لأنك كلما عملت بإخلاص للآخرين تزرع في قلوبهم شجرة سوف تثمر اليوم أو غداً، أو وردة سوف يفوح عطرها ولو لم ترها.

يا سبحان الله، لم أكن أعرف كيف تسعد أمي بما تعمل إلا حين سمعت منها هذا الحديث، أمي لا تقرأ غير كتاب الله، ولم تعرف طرق الفلسفة العصرية.

وكانت أمي تحبّ البساتين والأشجار، فترعى النباتات والورود والأزهار، وكنت أظن - وأنا صغير - أنها تعرف لغة خاصة تخاطب بها الأشجار والزروع والأزهار والثمار.

عندما كانت تقف تحت شجرة التفاح في بستاننا الواسع، تلمس جذوعها، وتربت بيدها على بعض الأغصان المتدلّية منها، وتبعد ما تراه غريباً عنها. وتعاملها وكأنها تلمس ولداً من أولادها الصغار، أو تمسح على شعره، فيحسّ بالطمأنينة والسكينة والمودة، فيزداد بها تعلّقاً ومحبة.

لقد كانت تخاطب بعض الأشجار أحياناً، وتسأل إحداها عما ألمَّ بها حتى هزلت وضعفت، وقلَّ ثمرها، أو ذبل بعض أغصانها.

وفي أحد الأيام، رأت أخي يمسك بأحد الأغصان ويتعلق به ويجذبه بمنة ويسرة حتى انكسر، فجاءت أمي والحزن بادٍ على وجهها، وأمسكت بالغصن، ثم قالت لأخي:

لماذا كسرت الغصن يا بني، انظر إلى أمه، هذه الشجرة تتألم وتبكي، لأنك كسرت ابنها. إنها يا بني مخلوقة مثلنا، لها شعور وإحساس، إنها طيبة وفية، تحب الخير لنا ولكل الناس. فهل تستحق منا - يا بني - أن نعذِّبها؟

ألم نجلس في ظلالها حتى دفعت عنا حرّ الشمس في الصيف؟ ألم تمنحنا الثمر الطيِّب في كل عام؟ ألم تخلع ملابسها وتقدمها لنا في آخر العام لنقدمها إلى حيواناتنا؟

إنها تعطينا ثمارها ولا تمنّ علينا، إنها تحبّنا، فلماذا نؤذيها يا ولدي. ورأيت أخي وقد دمعت عيناه، وقال: سامحيني يا أمي.

فربتت على كتفه، وقبّلته وقالت: هذه الشجرة طيبة سوف تسامحك ما دمت عرفت خطأك، ولكن عليك أن تكفِّر عن سيئتك بعمل مفيد لهذه الشّجرة وأخواتها. ومن ذلك اليوم أصبح أخي يحب الأشجار ويعتني بها.

❋ ❋ ❋

يا رحمة الله الواسعة ضمِّي أمي بين جنباتك، وانقليها إلى الفردوس الأعلى.

كانت دوماً تعطينا الحب والحنان، وتعلمنا كيف نعطي الخير، ونكره الشر، نحب الناس، ونكسب محبتهم.

قالت لي وهي في مرضها قبل أن تموت: يا بني لا تجزع، الله سوف يعينك أنت وإخوتك، لا تخافوا عليّ، وحافظوا يا بنيّ على مرضاة الله، وابقوا معاً متعاونين، كونوا يا بني متحابين، وإياكم أن تتفرقوا.

أنا راضية عنكم، وإذا كنتم تحبون رضاي فابقوا إخوة متعاونين متحابين.

ودمعت عيناي وأنا أحسّ بأنها تودّعني، فقالت لي: يا عامر، لا أريدك أن تبكي... بل أريد أن تحقق لي أمنية لم يكتب الله لي تحقيقها، وهي أن تحجّ إلى بيت الله الحرام عنّي، وتدعو هنالك لي.....

زدت بكاء، وأيقنت أن أمي سوف تفارقنا.

❋ ❋ ❋

هل جاء الناس يعزّون، أم جاؤوا يثيرون ما في قلبي من نيران الأسى على فقد أمي؟

أستغفر الله. ما هكذا علمتني أمّي أن أقابل الناس.

لقد تركت لنا بستاناً عظيماً، غرست فيه أثمن ما يملكه البشر:

غرست لنا المحبة، والصدق، والوفاء، والصفاء، وحب الخير.

لقد تركت لنا في كل بيت من بيوت هذه البلدة كنزاً من المعروف والثناء والمحبة.

وهكذا جاء الناس يتقاطرون من كل صوب ويقولون: رحم الله أروى، لقد خسرنا أمنا أروى.

ها هم الناس ـ كلهم ـ يغمروننا بالمحبة، ويشاركوننا الحزن. كثيرون كثيرون ـ لا أعرف أسماءهم ـ لم أرهم منذ سنوات، ولكنهم جميعاً كانوا يقفون بجانبي كما يقف أخي، وأخي، وأبي وأختي وزوجتي، وأقاربي.

كلهم كانوا يبكون وهم محزونون، وهم يرسلون الرحمات إلى روح أمي.

أمي، يا أهل الخير، يا من جاء لمواساتنا، أمي لا يتوقف قلبها. قلبها يا أهل الخير ينبض في كل بيت، ينبض في الأُسر العديدة التي أحبتها وشاركتها أفراحها وأحزانها.

أمي لا يتوقف قلبها، لأنه القلب الذي أعطى وأعطى، وظل يبتسم دوماً وهو يعطي...

أمي لا يتوقف قلبها، لأنها كهذه الشجرة الوارفة الظلال التي صمدت للريح، والشمس، والظلام، والبرد، وظلت تمنحنا الثمار والنضرة والظلال.

ألا ترون كيف يكون عطاء الشجرة، حتى وهم يضربونها، فتجيبهم بالعطاء والثمار، وتعلّمهم كيف يكون العطاء.

كل الذين يتطاولون على الشجرة، يعودون محسورين، لأنهم يخجلون من عطاياها وحنوها.

أمي كانت شجرة باسقة، لا يتوقف قلبها.

لأن قلبها لم يحمل إلا المحبة والخير، والمحبة والخير لا يتوقفان. والعطاء الصافي لا يذوب ولا يغيب.

قلب أمي مغروس في قلوبنا، في قلوب كل الذين يعرفون أم صادق.. وهم كثيرون.

❋ ❋ ❋

لقد ماتت أمي، وبكيت. وهل لأحد غيري أمٌ. إنها ماتت لكنها ظلت واقفة كالشجرة، ظلّت تعطي حتى حين غابت عن نواظرنا والشجر لا يموت إلا واقفاً.

من أوراق الدكتور سعد

الدكتور سعد رجل طريف وغريب، يصعب على المرء أن يحدد ملامح شخصيته هل هو متعلم أم لا؟ سؤال غريب حقاً لأنه يحمل شهادة رفيعة!!

هل هو من طلاب العلم الشرعي؟ الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى استعراض بعض أقواله، ومواقفه، وقد يؤدي إلى الانصراف عن الإجابة!!

إذا كان منهمكاً في العمل، لا تكاد تستطيع إلقاء التحية عليه، لأنه ينصرف بكل اهتمامه وطاقاته إلى موضوع عمله أو اهتمامه، ولكنك حين تطّلع على ما كان منشغلاً فيه، أو على نتائج هذا العمل تتساءل ماذا كان يعمل؟. وقد تشفق عليه وعلى أوقاته التي أنفقها بدون طائل..

وهو رجل، يبدو باستمرار - صاحب مسؤوليات كثيرة، وتدور في رأسه أمور عديدة تشغله وتحوز على اهتمامه.

وما دام يحمل شهادة عالية - دكتوراه - فهو من أصحاب الشأن، أو هكذا يبدو، على الأقل في نظره لنفسه، ومظهره الذي يظهر فيه، والموقع الوظيفي الذي يشغله. وحين يحضر بعض الاجتماعات التي يُدعى لها - بحكم منصبه - لمناقشة قضية من القضايا المتعلقة بعمله ومهمته، تراه يصول ويجول في النقاش، ولا يحرم المجتمعين من آرائه وخبراته وفتاواه، ولكن النتيجة التي يتفق عليها المجتمعون - دائماً - لا تمت بصلة إلى حديثه وآرائه، وفي الغالب يخرج المجتمعون وبعضهم يردد بعض أقواله ويضحك، ويهمس لزملائه قائلاً: ما علاقة هذا الكلام الذي قاله الدكتور سعد بموضوع الاجتماع؟!

وفي بعض الأحيان يضطرون للخروج من الاجتماع، ثم يلتقون في مكان آخر بعيداً عن أنظار الدكتور سعد، لإنفاذ ما اتفقوا عليه، وحرصاً منهم

على عدم إضاعة الوقت، ويضطر الدكتور سعد على توقيع محضر الاجتماع، ما دام يؤكد على أنه واحد من أعضاء اللجنة، وممن أقرُّوا هذه القرارات.

* * *

بعض الناس - ممن لا ينسجم مع الدكتور سعد - كانوا يتمنون ألا يكون الدكتور في هذا الموقع، وألا يشترك في مثل هذه الاجتماعات، لأن الوقت الذي يشغله الدكتور سعد في التحدث خارج موضوع البحث، أو الانشغال بجزئية من الجزئيات أكثر بكثير من الوقت الذي يستفيدون منه في هذه الاجتماعات. وحينما كان يتجه في تفكيره ونقاشه وجهة بعيدة جداً عن موضوع الاجتماع، كان يعجز الباقون عن إيقافه عن الحديث أو إقناعه ببعده عن الموضوع، وهو يثق بعلمه ومواهبه وخبرته ثقة تفوق أي عائق يعترضه.

ولكن كثيرين كانوا يفرحون بشخصية الدكتور سعد - أيضاً -، ويثنون على مواهبه، ويرون أن مسؤوليته التي يتحملها مناسبة جداً لهم، والدليل على ذلك سرعة موافقته على ما يريدون من أمور، أو يقدمونه من اقتراحات. وكان لكل واحد من الموظفين التابعين لإدارته طريقة في التعامل معه: الثناء، أو الإغراء، أو كشف بعض الأخطاء التي يقع فيها الدكتور سعد، أو إظهار تناقضات يعرفونها في تصرفاته، أو الأعمال التي يعرفونها عنه فيرضخ راضياً، راغباً، أو متبرماً، أو مقايضاً، لا فرق، إلا أنهم يصلون إلى الحصول على ما يريدون منه.

❋ ❋ ❋

وللدكتور سعد أنشطة مختلفة، وهي لا تخفى على موظفيه، لأنه قد يكلف - وغالباً ما يحدث ذلك - بعضهم في إنجاز الكثير من نشاطاته وأغراضه. لأن طموحه لا يتوقف عند عمله الوظيفي، بل كان - دوماً - يبحث عن مجالات جديدة يفيد منها المجتمع والناس - كما يقول دوماً - ولا بأس أن تدرّ عليه بعض الفائدة المادية. وهو في هذا ليس بدعاً من الناس، لأن التوجيهات المستمرة له ولأمثاله ألا يحرموا الوطن من العطاء.. ولاسيما من أصحاب الكفاءات، أي الشهادات، وخاصة العليا منها كالدكتوراه والماجستير، وهو من أصحاب هذه الكفاءات العالية بدون شك، فضلاً عن الخبرات الأخرى التي يتمتع بها...!

ولذلك كثيراً ما كان يحدّث نفسه بأمور في غاية الأهمية والفائدة، والغرض منها تحويل التوجيهات إلى واقع عملي ومشروعات ذات فائدة.

فمثلاً كان يحدّث نفسه أحياناً فيقول:

● لماذا لا يُتاح لأصحاب الشهادات العليا أن يشغلوا أكثر من وظيفة، والوقت يتسع لذلك..

● مثلاً: بإمكاني أن أدير عملي الوظيفي، وأنجز كل ما يطلب مني فيه بيوم واحد من أيام الأسبوع، أو بيومين، ويمكن - بالتالي - أن أتولى مسؤولية القضاء في إحدى المحاكم ليوم واحد - أيضاً -، وهذا لا يتعارض مع اشتراكي وإسهامي مع لجان عليا للتخطيط في مجالات التربية

والتعليم، والقضاء، والثقافة، والإعلام، والحِسبة.. في بقية أيام الأسبوع، أو خارج أوقات الدوام الرسمي. وهكذا يشعر الإنسان بالراحة والاطمئنان!! فالإمكانات أكثر من الأوقات، والوطن بحاجة إلى هذه الإمكانات والجهود، ونحن دولة ناهضة، وأبناؤها ملزمون بتقديم جهودهم لتطويرها لتلحق بالدول المتقدمة، وإن ما قطعته أوربا في قرنين من الزمان، يمكننا - بهذه الجهود - أن نقطعه في عقدين... نعم في عقدين، ولكن تحقيق ذلك يحتاج إلى السماح لأحدنا بإشغال أكثر من وظيفة، والإسهام بعدة أعمال، وممارسة شتى الأنشطة التي يرغب فيها.

وماذا عليه أن يحصل ذلك، وأن ينال المختص لقاء هذا الجهد في أكثر من مجال مكافآت مُجزية على هذه الأعمال، لكي يستمر في العطاء، ولتشجيعه على بذل المزيد من الخبرة، وهذا - بحد ذاته - كسب للوطن. إن ما تنفقه الدول الأخرى في مئات السنين لنهضتها، نختصره نحن بالكفاءات الوطنية، والجهود المخلصة خلال سنوات، ولذلك فأي شيء تنفقه الدولة في هذا الشأن قليل، إنني - وبحكم كفاءتي وخبرتي - أدعو وأطالب بأن يعطى المختصون أدواراً ومهمات متعددة، وأن ينالوا على ذلك مكافآت سخية، وهذا من صالح الوطن، وثمنٌ للنهضة.

شعر الموظفون في الإدارة، أن الدكتور سعد - وهو رئيسهم المباشر - صار يحضر إلى العمل بأوقات محددة في الأسبوع، وتضايق بعضهم في أول الأمر، لأن غيابه يؤدي إلى تأخر بعض الأعمال والمعاملات التي تحتاج إلى موافقته أو توقيعه.

ولكن أكثر الموظفين أحسُّوا بالرضى والراحة، وشيئاً فشيئاً تعوّد الجميع على ذلك ورأوا أن هذا الوضع أجدى من غيره... فهم يعرفون موعد حضور الدكتور سعد، وموعد انصرافه، ولذلك ما عليهم إلا ترتيب أعمالهم وأوضاعهم بما يتوافق مع مواعيد الدكتور سعد. وصاروا يتوافدون على غرفته تباعاً عند حضوره للحصول على موافقته وتوقيعه على بعض المعاملات، وحيث إن الأوقات لا تتسع للمناقشات والشروح والإطالة، فإن الدكتور سعد كان يكتفي بتلخيص أي موضوع بكلمات من الموظف، وبعدها يضع على أوراق المعاملة توقيعه وموافقته أو توجيهه، ولا يمنع ذلك انشغاله بأمور أخرى، وعدم إصغائه للموظف، المهم عنده أن يؤدى. وكان الموظفون يتهامسون فيما بينهم فرحين ويقولون: الله يديم هذه النعم، ولا سيما بعد أن ينتهي الجميع من الحصول على كل ما يريدون من موافقات الدكتور سعد، وبمدة وجيزة.

وصار دخولهم إلى غرفة المدير منظماً، وكل واحد منهم ينتظر زميله لإنجاز معاملاته، فإذا خرج أحدهم دخل الآخر، وهكذا حتى يدخل الجميع، ولا يمنع ذلك بعضهم من الدخول لإلقاء التحية والاطمئنان على صحة المدير العام.

وكان لكل واحد منهم طريقته في إنجاز المعاملات، وتلخيص الموضوع للدكتور سعد، ولكن هذه الطرق جميعاً تجتمع عند مزايا الدكتور سعد وشخصيته واهتمامه، ومعرفة الموظف بما يصلح أو لا يصلح عرضه عند تقديم الموضوع، ويترك الأمر للدكتور سعد، الذي

كان شديد الثقة بخبرته، وهو صاحب الشهادة العالية، ولذلك يوافق على هذه الموضوعات التي لا تحتاج - كما يعتقد - إلى عناء التفكير.

ومع ذلك فهناك بعض الأمور التي تحتاج إلى خبرة أحد الموظفين الماهرين الذي بنى صلاتٍ خاصةً مع الدكتور سعد، ويعرف كيف يوضح له الفوائد المادية التي تعود عليه من الموضوع الذي يريد إنجازه.

قال أحد الموظفين لزميله: الآن سار العمل بانتظام، لم تعد هناك مناقشات ولا توجيهات، ولا مفاوضات مع المدير للحصول على موافقته، ماشاء الله أصبح الدكتور سعد كثير المشاغل، ولا وقت لديه لسماع الترّهات من الموظفين، أو إضاعة الوقت بشروحهم الطويلة، يكفي أن يسمع من الموظف ملخصاً - لأي موضوع - بكلمة أو كلمتين، حتى يوافق ويوقع، أحياناً يقول أحدهم له: سعادتك تعرف أن هذا الموضوع مهم، وهو من توجيهاتك. أو يقول: سوف نطلب تكليف عدد من الموظفين بإشرافكم بمهمة لمدة شهر.. وتأتي الإجابة سريعة بالموافقة، مع توجيه للموظف بسرعة إكمال اللازم، والدقة. نعم أصبحنا كالساعة بين يديه - هكذا قال الموظف لزميله - وصار أحدنا يعرف المعاملات التي تحتاج إلى شرح، أو لا تحتاج.. صرنا نرتّب الموضوعات حسب تدرج معين تتوافق مع وتيرة الرضى النفسي للدكتور.

بعض المعاملات أكتفي - شخصياً - بقراءة عبارة واحدة منها أختارها فيوقع الدكتور بلا تردد وبرغبة، ولا حاجة لي بالربط بين هذه العبارة وموضوع المعاملة، وبعضها أختارُ منها تاريخاً، أو رقماً، أو إشارة إلى اجتماع، فأحصل على الموافقة، ولا شك أن الدكتور سعد ملهم، يستطيع أن يلمح ما يريد بسرعة وشفافية، ويقضي الواجب خلال ساعة ويمضي، ثم يضحك.

ولا يمنع هذا الدكتور سعد - أبداً - مع هذا الفيض من الثقة بينه وبين نفسه، وبينه وبين موظفيه، أن يسأل عن صحة تاريخ، أو أمر، ويكون الجواب حاسماً من الموظف: هاهي يا سعادة الدكتور، وحسب توجيهاتكم، ثم يضع يده على عبارة داخل السطور، فيتأكد المدير الطريف - حينها - أن الأمر على أحسن ما يرام، ولو لم يقرأ العبارة، ولو كانت إشارة الموظف أي رقم آخر.

أجابه زميله مستطرداً: في بعض الأوقات يودّ المدير أن يذكرني بفطنته ومتابعته للأمور، وإحاطته بكل ما يجري في هذه الإدارة، فيمسك بواحدة من المعاملات، ويسألني عما آلت إليه، وقد يسألني عن أمر استوحاه من السطر الأول، أو من عبارة في الورقة الأولى. وأُسرعُ - أنا - إلى الإجابة بثقة، وأحاول الاستطراد في موضوع ما يعرفه أو لا يعرفه، فيقاطعني بعبارته الظريفة، أحسنت أحسنت، فأتوقف عن الحديث، ويوقع على المعاملة، ثم أخرج وأنا أتساءل في سري: ما علاقة سؤاله بهذه المعاملة وموضوعها؟ ولكنني - في الوقت نفسه - أكون قد أجبته على سؤاله بكلام لا علاقة له بالسؤال،

ويحصل الرضى، وتتم الموافقة، وأضحك وحدي، ولا شك بأن الدكتور سعد، بهذه الطريقة، أدخل السرور والضحك إلى قلوب جميع موظفيه.

* * *

ظلت طريقة العمل تسير بهذا اليسر، والموظفون برضى وسعادة، ما دام حضور الدكتور سعد محدداً بأوقات قصيرة، قد لا تكفي للتوقيع على المعاملات، بل كان يضطر أحياناً لتكليف واحد من موظفيه ببعض الأمور، ولا سيما الخطابات التي تخص أنشطته المختلفة، وقد تكون تحرير عقد للبيع أو الشراء، أو كتابة معروض للمسؤولين للحصول على منحة، أو مكافأة، أو ترقية.

وضاقت أوقاته عن واجباته، لذلك صار يعهد بإنجاز بعض المعاملات لأحد الموظفين، وهذا - ولا شك - ينبع من شعوره بالمسؤولية، وحرصه على المصلحة العامة، وخوفه من تأخّر بعض المعاملات، ولذلك لا بأس من تكليف زميل آخر، وفي هذا تدريب له على حمل المسؤولية أيضاً، ونقل الخبرات من الأعلى للأدنى، وعدم احتكار المعرفة، ولنقل إن ذلك نوع من السخاء عند الدكتور سعد، قد لا يقدر عليه غيره.

* * *

أصحاب الكفاءات دائماً موضع اهتمام، وأصحاب الأنشطة الكثيرة والهمم العالية ينالهم - أحياناً - الحسد والغيرة، ولذلك

تعترضهم بعض المنغصات. هذا الزمن عجيب ولا شك، لا يتركون للإنسان الفرصة الكافية لتحقيق مطامحه، وعندما يحصل على بعض النجاحات تتحرك الغيرة، أو الحسد، أو المطامع عند آخرين، هذا ما كان يشعر به الدكتور سعد في بعض الأوقات، ولا سيما عندما يخفق في بعض مشروعاته، أو يتعثر في الحصول على فائدة ما دون أن يسعى إليه.

وذات يوم دخل إلى غرفته أحد الأشخاص المراجعين، وسلّم عليه، ثم جلس، مما يُظَن بأنه يعرف الدكتور سعد، وله عنده بعض المكانة، وإلا لما جرؤ على التسليم بهذه الطريقة والجلوس، وهو يعرف أنه المدير العام.

وكان بعض الموظفين يدخل إلى الغرفة، فيصطدم بصره بهذا الرجل الذي يجلس جلسة مَنّ بينه وبين الدكتور مودّة ومعرفة سابقة، ولم يكن قريباً لأنه - كما هو واضح من ملامحه - ليس من بلد الدكتور سعد.

ولم يكن الضيف معروفاً عند الموظفين، ولذلك لم يتحدث مع أحد، وقد يراه بعضهم وقد انصرف بكليته عن الدكتور سعد، وكأنه طمأن نفسه على جلسة طويلة أو إقامة دائمة.

أما الدكتور سعد، فكأنه آثر الانشغال عن هذا الصديق، أو الزائر دون أن يبدو عليه أي شيء من علامات الرضى أو الترحيب به.

ومع أنه كان شديد الحذر من أن يبدو عليه شيء من القلق، ولكن كل من يعرفه كان يلحظ عليه عدم الاطمئنان.

ولم يكن أحد يعرف غرض هذه الزيارة الغريبة، ولا مدتها، بينما كان الدكتور سعد يشغل وقته بالنظر في بعض الأوراق، أو إطالة الحديث مع أي موظف يدخل إلى غرفته لأي حاجة، وكأنه يريد أن يستبقيه معه لمدة أطول دون الإفصاح عن سبب ذلك...!

وإذا رن جرس الهاتف أسرع بالإجابة، واستغرق طويلاً في السلام والتعبير عن الأشواق، والتحدث بشتى الشؤون الخاصة والعامة...

ومضى أكثر من ساعة والزائر قابع، وكأنه مقيم ما دام المدير في الغرفة، وانقطع دخول الموظفين، وخلت الغرفة إلا من الدكتور سعد وصديقه الزائر.

نهض الرجل - الذي أثار انتباه كل من رآه من الموظفين، وأصبح موضع حديثهم - وقفل الباب بعد أن أغلقه، وعاد إلى مقعده، ثم مضت دقائق دون أن يسمع أحد شيئاً، أو يعرف سبباً لذلك.

هل هو صديق قديم للدكتور سعد، وبينهما ودّ خاص وقديم، وتآلف وعدم كلفة، ولذلك مكث كل هذه المدة حتى يفرغ الدكتور من أعماله، ويصبح الجو ملائماً للحديث؟

أم هو شريك للدكتور في إحدى مشروعاته الكثيرة، وجاء اليوم ليناقش معه بعض ما يتعلق بالمشروع؟

أم أنه مرسل من أحد العارفين بالدكتور بأمر يريد أن يتوسط له فيه ويعينه على إنجازه؟

أم هو قريب للدكتور جاء من بلد آخر، ويريد أن يضيف عند الدكتور، ولكنه آثر ألا يفصح عن ذلك أمام الموظفين؟

أم ماذا وراءه؟... كثير من التساؤلات كانت تدور في أذهان الموظفين، ولكن كثيراً من هذه التساؤلات كانت بعيدة عن الواقع أيضاً...

❋ ❋ ❋

فجأة بدأت أصوات تعلو في غرفة الدكتو سعد، وسمع الموظفون هذه الأصوات فخرجوا تباعاً، وهم يصغون إلى هذه الأصوات.

ووسط هذا اللغط لم يستطع أحد معرفة ما يدور في الغرفة، ولكن الأصوات كانت تعلو وتزداد، وتعبر عن غضب وخصومة وقهر. ماذا حدث؟ وماذا يحدث في الغرفة؟

فكر بعض الموظفين باقتحام الغرفة... ولكنهم استبعدوا ذلك خوفاً من المسؤولية، فالدكتور سعد مسؤول، وهذه دائرة رسمية، ولا يُعقَل أن يجرؤ الزائر على فعل شيء وهو في هذا الموقف، ولم يستطع أحد تبيّن الذي يحدث، أو يربط بين ما كان يسمع من عبارات الشتيمة أو الاتهام، أو التشكّي، أو التوعّد. لكن الباب فتح فجأة، وظهر الرجل وعلى وجهه علامات الغيظ والغضب والحسرة، كان يمشي وكأنه في حيرة وتردد يستدير إلى الدكتور سعد وهو يقول:

أنت كذاب وسارق، وأنت أكذوبة ملفقة، أيها الجاهل اللص الذي تدّعي العلم، وتسرق الناس، وتغشّ العالم.

ويرد عليه الدكتور سعد، وعلى وجهه علامات الغضب والتأثر والاصفرار، وهو يهدد الزائر، ويطرده بصوت يرتجف، ويدٍ تهتز، وصدر يعلو ويهبط...:

اخرج من هنا، اخرج ليس لك شيء عندي... أنت تكذب وتدعي، سوف أشتكي عليك وأضعك بالسجن!!

نظر الزائر نظرة حسرة وغيظ وقال: ضعني أيها الدكتور الملفق بالسجن، لأنني أستحق ذلك.. نعم أستحق العقوبة بعد ما ساعدتك على الخيانة، وشهدت لك زوراً أنك صاحب كفاءة، وقدّمت لك هذه الشهادات التي لا تعرف عنها شيئاً.... نعم أصبحت دكتوراً ومسؤولاً، زوراً وبهتاناً. ولكنني - حقاً - أستحق السجن والعقوبة.

الإجازة والغربة

حطت الطائرة بعد منتصف الليل في آخر مطار لها، منهية بذلك رحلة طويلة، وتوقّفات متعددة، وأحس عبد الرحيم بالتعب الشديد وهو يدرج مع أسرته نحو «الصالة» لاستلام الأمتعة، والتوجه إلى البيت، بعد قضاء تلك الإجازة القصيرة مع أسرته.

وتنفّس الصعداء، حينما بدت له وجوه ألفها من قبل، وظهرت له معالم المطار الذي يعرفه جيداً، ولطالما سافر منه مرات ومرات، ولكنه تذكّر الساعات الطويلة التي مضت وهو يتنقّل من مطار إلى آخر. وأحس بوخزات التعب، كان يشعر بأن الزمن يتثاءب ويتطاول حتى مضت اثنتا عشرة ساعة في ذلك اليوم منذ أن خرج من (الفندق) في استانبول متجهاً إلى المطار ليعود إلى مكان إقامته وعمله.

ها هو يقف وينتظر وصول الأمتعة لاستلامها، وأولاده حواليه، بعضهم كان يقاوم النّعاس، وبعضهم راح يلتمس مكاناً يستريح فيه. ما زال السير الدّوار واقفاً، والناس يتكاثرون حوله وينتظرون، كل دقيقة تمر تدفع بمزيد من عدد الواقفين والمنتظرين..

«يا الله!! قبل ساعات كنت بعيداً بعيداً على شاطئ البوسفور الجميل، وبيننا - الآن - وبين ذلك المكان، بحار ممتدة، ودول متعددة، ومسافات طويلة.. هكذا أنتقل في ساعات وأعود إلى هنا عبر هذه المسافات الشاسعة... يا الله....».

«كانت الإجازة ممتعة حقاً: الطبيعة الساحرة، والأشجار الباسقة والورود المتنوعة، والعبير الفوّاح، والعطر الذي يملأ الأرجاء. الحقول خضراء ممتدة، والغابات كثيرة وكثيفة تملأ السهل والجبل، والشواطئ كثيرة...»

لقد شدّتني تلك المناظر الطبيعية الساحرة، وأحسست وأنا أقضي الإجازة بأنني انعتقت من إسار هذه المدنيَّة الحديثة التي تتميّز بالمعلبات والمصنّعات، والمثلّجات والقوالب الجاهزة، والسرعة المجنونة.

وهناك الشجر الباسق المتمايل، شجر الحور والصفصاف، والدلب والأشجار المثمرة. أتعرف شجر الحور والصفصاف؟ هل رأيت كيف تصطف على ضفاف الأنهار، وترتفع بقاماتها المستقيمة الملساء؟

وهل رأيتها وهي تتمايل على بعضها حينما تداعبها النسمات الباردة وتتعانق وتتمايل بحنو ورفق وجمال؟

هل سمعت همساتها يوماً كما سمعتُه أنا؟ وهل عشت وسط الحقول، وتحت ظلال الأشجار الودودة؟

أشجار التين، والعنب، والتفاح، والخوخ، والدراق...

الورود!!! ماذا أقول عن الورود... عن هذا العالم العجيب من الألوان والروائح، والأنس، والمحبة، والهمسات التي لا تسمعها إلا القلوب..

كلها كانت تهمس لي وتحدثني، وكلها كانت تبعث في نفسي أحاديث الأشجان والأشواق..

في كل صباح كنت أجلس على الشرفة وأمامي الحديقة المملوءة بالأشجار المثمرة، والورود المختلفة، والنباتات الخضراء، حينها لا يكون حولي أحد، إلا العصافير والدجاج، وأبناء القرية الذين ينهضون مبكرين لبيع منتوجاتهم من الحليب الطازج، والفاكهة اللذيذة..

كنت أكلم هذه الورود والأشجار وتكلّمني، تحدّثني عن طفولتي وصباي، وتذكّرني بأيام خوالٍ حملت أطيب أمنياتي، إنها قريبة مني، وقريب منها، لقد حملت أكثر ذكرياتي جمالاً، وأودعتُها من أسرار طفولتي وشبابي الشيء الكثير.

نعم لست حالماً، ها هو الوادي الظليل، وادينا الجميل، الذي يمتد، ويتلوى بين جبلين حتى يصل إلى النبع الصافي، وينساب فيه جدول عذب رقراق، وحواليه الحور والصفصاف والدلب، وشجر الجوز، والمشمس والتين، فتظل الحقول على ضفتيه في حبور وسرور، وتنبت المروج والحشائش الخضراء في أفيائه، عالم من الجمال والبساطة، والسحر والعطر...

وعند المساء؟ ما أحلى أمسيات تلك الحقول! كنت أحضر مهرجاناً من الألحان والألوان والمناظر التي لا تنسى، حين تأوي الطيور والعصافير إلى أعشاشها، وتغيب وسط الأغصان الكثيفة والأوراق المتداخلة، حينها لا تستطيع أن تغلق قلبك أمام هذه الأصوات الشجية: زقزقات العصافير، وتغريد الطيور، ونقيق الضفادع، وتصفيق الأوراق، وحفيف الأغصان المتمايلة.. مع رائحة المساء الندية، وهمسات النسمات الباردة التي تسري آثارها في جسدك كله فتحسّ بكثير كثير من الدغدغات اللطيفة، التي تمسّ جلدك فتسري في جسدك قشعريرة ناعمة، ولمسات سحرية تصل إلى خلايا جسدك كلها.

كل ذلك وسط ظلال وألوان عجيبة متداخلة، طلائع الظلام ووداع الأشعة الحمراء الممتزجة مع الصفرة، وبقايا الضياء المتناثر، وانعكاس الظلال المتراكمة، وموجات الظلام المتكاثر. هل تستطيع أن تدبج كل هذه الألوان بلوحة فنية واحدة؟!

يا سبحان الله.... أية حياة! وأية ذكريات... وأي جمال!!

أشجار التين.. آه ما أحلى أشجار التين!! هل أستطيع الصبر وأنا أرى ثمر التين الشهي يتدلى من الغصن؟

أيها كان أحبّ إلى نفسي، وألذّ طعماً عندي؟

ما أقسى البعاد ما أقساه! لقد غاب عنّي طعمه.... لا .. لا ... هنا هنا أرى تلك الشجرة تشير إليّ، وتغريني بالوصال، وهذه الثمرة تغمزني وتعدني بطعم لذيذ...!!

التين (الحُمري) أطيب.. لا بل (السودي)... لا بل تين (البعل) الأشقر البارد.. لا ... كله طيب ولذيذ.. هل ذقت كما ذقتُ - أنا - ثمار التين وأنت تقطفها في الصباح الباكر، فترى عليها قطرات الندى، ورعشة البرودة الناعمة؟ هل سمعتها تناديك وتناغيك وهي على الأغصان؟ حديقة بيتنا - أين بيتنا الآن؟ - لم يكن بيتنا كبيراً، لكن كل حجر فيه يحكي لنا قصة يوم من حياتنا، ويحمل نصيباً من العرق الذي تصبب على جبين والدي، ووالدتي يوم بنوه لنا...

يحمل حكاياتنا الصغيرة يوم كنا نحمل الأحجار، وننقل الرَّمل والإسمنت لنبني هذا البيت، رحم الله والدي لقد مات، لكنه ظلَّ حياً في

كل شبر من هذا البيت، بل مع كل كلمة نقرؤها أو نكتبها، لقد كان أبي بسيطاً لكنه كان كبيراً، شموخاً طيباً وجاداً، كان رمز العطاء المخلص، والعمل الدؤوب... لقد مات، مات رحمه الله، ولكنني ما زلت أبكيه!

الحديقة ما أحلاها.. لم نستورد ترابها، ولم نصنع ورودها في المزارع المختصة.. حديقة بيتنا تراب يحمل تراث هذه الأرض، سقيناه بالعرق، جُبل مع أتعابنا، فأنبت أشجاراً وورداً، وفاح بالعطر والرياحين، وكان كل شيء فيه يتكلم، نعم كل شيء يحدثنا... ونحدثه..

شجرة (الهندي)، (والخوخ)، (والزيتون)، كلها في حديقتنا، يا له من وئام وألفة ومحبة تحمل كثيراً من العجب...!

هل أصبحت هذه الأسماء رسوماً وذكريات تستحق منا البكاء!!

ما أقسى البعاد...!! طعم الغربة يفسد كل شيء، ويشوّه الصور الجملية...

في هذه الإجازة كانت الورود تمتد إلينا كل صباح، تضحك معنا، تحيينا، وتمنحنا العطر والزهر..

وفيها الورد (الجوري)، (والأبيض)، (والزنبق)، (والمنثور)، (والقرنفل) (والياسمين)، (والقنصل) (والريحان)، (والعطرة) و...

أين أنا من الحديقة والبيت والأشجار والذكريات!؟

عشر سنوات عجاف تفصلني عن ذكرياتي، ظننتها دفنت مع الأيام والشهور والسنوات، صحراء ممتدة ليس فيها إلا الجوع والظمأ والغربة، واليوم بلمحة تعود... نعم تعود هكذا فجأة، أحسست وأنا

أذكر ذلك أننا نعيش كما يعيش المريض وسط العناية الصحية الصناعية: التنفس من خلال الأنابيب والغذاء عن طريق الحقن، وكل شيء من خلال الأجهزة، هذه هي مدنيّة القرن العشرين!!

قالوا لي: لقد تبدل كل شيء في بلدك: ذاك الوادي الظليل أصبح داكن اللون، كئيب المحيا، حزين الفؤاد...

لم يعد فيه ماء يجري، إلا بقايا امتلأت بالأوساخ، ولم تعد أشجاره تحنو وتتمايل، بل أصبحت بقاياها خرساء باكية، ذهب الماء والفلاحون وأحباب الأرض..

لقد خلت الحقول المتدرّجة على ضفاف النّهر من الطلاب الذين يمضون الساعات الطويلة قبل الامتحان للدراسة والتحضير..

ولم يعد هناك إلا مجموعات تبحث عن اللذّة الحرام، والمتعة الفاجرة، ولسوف تشمُّ من بعيد روائح كريهة لم تعرفها من قبل لأنها محرمة، ولسوف تصادف عربدة الكثيرين في تلك الحقول المنسيّة؟!!

❋ ❋ ❋

آه.. لقد تأخرت الأمتعة، هكذا انتبه عبد الرحيم فجأة من ذكرياته التي كادت تنسيه ما هو فيه، وعاد الضجر يتسرّب إلى نفسه. نظر إلى الساعة فرآها تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل، الأولاد يتثاءبون، والتعب أصبح واضحاً على وجوههم.

ها هو السّير الدوار قد بدأ يتحرك، وخلال دقائق تدافعت الحقائب وراء بعضها وانتثرت على جانبي المكان، واستطاع عبد الرحيم

أن يجمع حقائبه، ويضعها على عربتين يدويتين ويتجه بهما مع أسرته إلى موظف الجمارك لتفتيش الأمتعة. وضع الحقائب على الحاجز الممتد وهو أشبه ما يكون بالطاولة المستطيلة أمام موظف الجمارك، ثم بدأ يفتحها.

نظر إليه الموظف ثم سأله: هل أنت من البلد؟

أجابه عبد الرحيم: لا يا أخي.

فقال الموظف: أتسمح بجواز سفرك.

● تفضل هذا جواز السفر.

ثم ناوله جواز السفر، فنظر إليه الموظف، وقلّب بعض صفحاته، ثم وضعه على منضدة بجانبه والتفت إلى زميله وهمس في أذنه بصوت مسموع: إنه من بلد.... وذكر اسم البلد الذي يحمل عبد الرحيم جواز سفره. ثم عاد ليفتّش الحقائب، أمسك الحقيبة الأولى ثم نثر محتوياتها قطعة قطعة: ثياب للصغار والكبار، حاجات وأشياء يصطحبها المسافر معه، هدايا.. وخلال دقائق أصبحت أمتعة الحقيبة الأولى منثورة مبعثرة على منصة التفتيش بلا ترتيب....

يا الله... مضت ثلاث عشرة ساعة وأنا في هذه الرحلة، ها قد بدأ النصف الثاني من الليل ينصرم، ماذا جنيت لتُنثرَ هذه الأمتعة بهذا الشكل وتفتش بهذه الدقة؟ هناك في بلدان أوربا وغيرها يستقبلونك بالابتسامة، وكأنك صديق، ويرحبون بك، ولا تقف أمام الموظف المختص بالجوازات أو الموظف المختص بالتفتيش إلاّ دقائق، يلقي خلالها الموظف نظرة شاملة عاجلة على الأمتعة وتمضي مع

ترحابه وابتسامته. هناك أعداء ألداء، يبتزون المال، ويسفكون الدماء، ولكنهم يعرفون كيف يتعاملون مع الناس حينما يقدمون إلى بلدهم زائرين أو عاملين.

سبع حقائب كبيرة وخمس صغيرة، كلها ستنقض بهذا الشكل أمامي بعد لحظات، وتنثر أشياؤها كما نثرت الحقيبة الأولى؟

كادت عبرات عبد الرحيم تنهمر وهو في سنّ الكهولة وأمام أولاده الذين ينظرون ويكظمون الغيظ، أحسّ وكأنه يكاد يختنق، لقد ضاق به المكان على سعته، وراح يتلفّت وكأنه يبحث عن هواء يتنفس منه، لم يعد يدري ماذا يقول! الدنيا أصبحت أضيق من ثقب الإبرة، لقد أمضى وقتاً طويلاً في ترتيب الحقائب، وضبطها حتى تمكن من قفلها، فكيف يعمل الآن إذا انتثرت مرة ثانية في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

لماذا يعبث هذا الموظف بالحقائب بهذه الطريقة؟ هكذا تساءل عبد الرحيم، لكنه معذور، نعم معذور، لقد سمعه يهمس لزميله باسم البلد التي ينتمي إليها عبد الرحيم، هذا الاسم الذي أصبح علماً على مشكلات ومآسٍ وجراح، وغدا في نظر المسلمين علامة استفهام كبيرة ودليلاً على الخوف والرعب والحذر... ولماذا؟

هذا السؤال الذي ضجّ في نفس عبد الرحيم حتى كاد يسقط من حمى التعب والصراع.

بلداننا أصبحت متهمة دائماً، وشبهة تدعو للحذر والخوف...

أيدي الموظف بدأت تعبث بالحقيبة الثانية، وبعد قليل سوف تصل إلى الثالثة...

ما زال عبد الرحيم في غيبوبة، وهو يعيد ترتيب الأغراض في الحقيبة الأولى، كانت محاولاته مضنية، ثم باءت هذه المحاولات بالفشل، ولم يستطع إغلاق الحقيبة، فاضطر لترك مجموعة من الأغراض خارجها..

تمنّى لو يستطيع الصراخ، أو البكاء، أو التخلّص من الحقيبة، أو.... هل ستمتدّ المأساة إلى الحقائب جميعاً....؟

وهل سينتظر حتى ينقض الموظف كل ما في الحقائب؟

كيف سيعيد الأغراض؟ وكيف سيحمل الحقائب؟

نظر إلى الموظف بوجه بائس مكدور ذليل، وقال له:

يا أخي! أحلف بالله العظيم أن هذه الحقائب لا تحوي سوى ما رأيت: أغراض الأولاد، وبعض الهدايا والمشتريات، وليس هناك ممنوعات ولا محرمات...

أمضيت في بلدكم عشر سنوات، بسيرة حسنة...

نظر الموظف إلى عبد الرحيم، وربما رأى في وجهه ما ينمّ عن البؤس والصدق والتعب، فأحس بشيء من الشفقة أو الاقتناع. كانت السنوات الأربعون التي انتهت قبل ثلاث سنوات قد تركت على وجه عبد الرحيم تجعدات وندوباً، والشيب زحف إلى لحيته وشاربه بعد أن فرق سواد رأسه وعبث به، نعم ربما أشفق الموظف على منظر عبد الرحيم وهو يحاول جمع الأغراض المتناثرة.

وربما تذكر الموظف أباه الشيخ، أو مرت في خياله أشياء وأشياء مما تحمله أجهزة الإعلام في كل يوم عن بلد هذا المسافر الغريب، وما حل بها من فتن، وعن هذا العالم الصاخب الذي لم يعد يعرف الطمأنينة.

لم يكن يدري ماذا يدور في نفس الموظف، لكنه قرأ على وجهه علامات البراءة، والمسؤولية، والجد، والحيرة.

إنه موظف يقوم بواجبه، ويعمل لمصلحة بلده، ولديه تعليمات وأوامر ينبغي مراعاتها، وهي لا تعرف علامات الحزن، أو أمارات البؤس أو الصدق أو ....

سأله الموظف: أين تعمل؟

● أعمل في التعليم، إنني موجه...

لم يتكلم شيئاً، بل انصرف إلى بقية الحقائب يتلمسها بخفة، ويضع عليها إشارات التفتيش الخاصة، دون أن يدقق كما كان يفعل.

❋ ❋ ❋

حينما وصل عبد الرحيم مع أسرته إلى البيت، كان موعد أذان الفجر قد اقترب، فانتظروا حتى صلوا الفجر وناموا...

وفي اليوم الثاني استيقظ متأخراً بعد أن مرّت ساعات الصباح الأولى، وأصبح الوقت ضحى..

تذكر أن اليوم جمعة، فأسرع ليتهيأ للصلاة، ثم توضأ ومضى نحو المسجد الجامع..

كانت أحداث الأيام الماضية وذكرياتها تمرّ في خياله كشريط مصور ومسجل:

الأرض الخضراء، والأشجار الباسقة، والماء الرّقراق، والفاكهة الطازجة اللذيذة، والعصافير المغرّدة، والدّجاج والديكة، والأغنام،

والفندق والآثار، والمطارات المختلفة.. كل ذلك يمر في خيال عبد الرحيم بسرعة خاطفة. لقد تذكّر الأمسية التي ودع فيها والديه وإخوته وأصدقاءه، نعم كان يجلس ومعه بعض الأصدقاء يتحدثون عن البلد والسفر، فقال أحدهم: إنني أشفق عليك يا عبد الرحيم من هذا السفر، أنت لا تعرف ماذا سيحدث لك بعد أن تسافر، ولكنني في الوقت نفسه أُكبر فيك هذه الجرأة، وعدم خوفك من سطوة القوانين ورهبة المجهول الذي ستقدم عليه!!

كيف ستترك خدماتك الطويلة في التعليم؟ وماذا ستفعل إزاء وضعك الوظيفي؟ كل هذه الأسئلة ستحتاج منك إلى جواب ولكنك - مع هذا - أحسن منا، ستنتهي من هذا الذّل الذي يلازمنا كل يوم، وهذا التناقض الذي نعيش فيه، ولا أدري ماذا أقول عن سفرك هذا: هل هو هرب أم اقتحام وجرأة وبناء؟ لا أدري ماذا أقول لك يا أخي عبد الرحيم، ولكني أدعو لك بالتوفيق، والعودة بالنجاح..

الذل.. الكرامة، العذاب، الغربة.... هناك أمام موظف الجمارك أصبحتُ كهذه الأمتعة المكدّسة، لا حياة فيها ولا حسّ، لا تعرف معنى الذلّ أو الكرامة أو العذاب، يعبث بها الموظفون كلٌّ كما يشاء، إنني أحمل اسم البلد الذي ودّعت فيه كل تلك الذكريات...!!

في بلدي...آه من بلدي... ودّعته قبل سنوات تزيد عن العشر، لقد سُجن الألوف، وشُرد أكثر من عشرات الألوف، وقُتل الكثير الكثير. بعضهم أعرف وجوههم، وأحمل بين جنبيَّ حبهم، وتجمعني بهم ذكريات، كانوا أطهاراً، استعصوا على الذلّ، والإفساد، والضلال، ووقفوا يدافعون عن الحق والفضيلة، ويبشرون بالخير...

نعم ماتوا، أو غابوا في ظلمات السجن، أو شردوا في كل أرض غير أرضهم، ولم يبق في بلدي، إلا من رحم ربي...

الذل الذي أبيت الخضوع له هناك يطاردني في كل مكان، هنا وهناك، وهنالك، حيث كنت أحمل هذا الاسم وأنتسب إلى هذا البلد، فيشار إليَّ وإلى أمثالي... هذا من بلد كذا...

ماذا جنيت؟! كانت نفس عبد الرحيم تضجُّ بهذه الذكريات والمشاعر والأفكار والتعب، وهو يدخل إلى المسجد..

صلى عبد الرحيم ركعتين وجلس، ولكنه حاول أن يتذكّر ما قرأ في الركعتين فلم يستطع، تمتم بصمت: أستغفر الله، وزفر زفرة حارة، وكادت عبراته تسقط وسط جموع المصلين.

صعد الخطيب المنبر وبدأ بالخطبة، يذكّر الناس ويعظهم، ثم يختم ذلك بالدعاء للمسلمين بالهدى والنصر على الأعداء...

كان عبد الرحيم - حينها - في شبه غيبوبة:

صور وذكريات ومخاوف ومشاعر أليمة، وضيق في الصدر، وإحساس بالغربة. تذكّر في هذه اللحظات ما سمعه من أصدقائه الذين التقى بهم في الإجازة:

هذا يتحدث عن تسريحات كبيرة للموظفين، وذاك ينقل خبر الاعتقالات، وثالث يذكر أرقام الذين أُنهيت عقودهم حيث يعملون، ورابع يذكر حادثة تدل على ما سيؤول أمر أمثاله من الناس، وخامس وسادس، ماذا يحدث يا الله!.

فتنة ومخاوف، وساوس، ورعب، ومشاعر الغربة، والذل...

حتى يكاد اليأس يمسك بزمام نفسه، ويسدّ عليه منافذ الأمل. تذكّر أولاده واحداً واحداً، هذا أصبح في المرحلة الثانوية، وتلك نجحت إلى الصف... وثالث، ورابع.... تذكرهم حين راحوا يتحدّثون بشوق عن بلدهم، ويسألون ويسألون وعبد الرحيم صامت لا يعرف ماذا يجيب، تذكّر الضياع الذي يعيشون فيه، إنهم أغصان بلا جذور، لم يعرفوا معنى الأهل والقرابة والأرحام، والوطن... ولم يسمعوا كلمات الحنو من قريب، اليوم في هذا البلد، وغداً في ذاك، والبارحة كانوا في غيرهما، ينتقلون من بيت لآخر، ومن مدرسة لأخرى، لم يستطع أحدهم أن يتعرّف إلى صديق، أو يأنس بزميل، وكيف يستطيع المرتحل أن يكوّن علاقة مطمئنة؟ وكيف للغصن أن يشعر بالاخضرار وهو لا جذر له..

الصداقة: ذكريات وأيام وحياة مشتركة، وعواطف متبادلة، وآمال تتوالد مع توالد الأصباح والأماسي والذكريات، وفي الغربة لن يستطيع الصغير أن يجد شيئاً من هذا.. إنه بدون هذا كله...العلاقات الإنسانية عنده كهذا الطعام المصنوع في الغرب والمصدَّر إلينا بالمعلّبات، يصلح لسد الجوع، ومعالجة أمر الضرورات فقط، ولكنه لا يمكن أن يكون ممتعاً ولذيذاً... ولا يعرف آكله ما فيه من أضرار...

إنهم يشربون الغربة مع الماء المثلج الذي يصنعونه صنعاً، وهم - أولاد عبد الرحيم - لا يعرفون الماء العذب البارد الرقراق.. ولم يشاهدوا نبعاً فوّاراً يدفع بالماء النمير ليجري عبر الحقول والبساتين كنبع بلدهم، ولم يعرفوا السواقي التي تغنّي للأعشاب والأشجار والطيور..

ولم يشاهدوا البطيخ وهو ينفلق بعد وضعه في هذا الماء البارد، ولم يروا كيف يلعب الصغار من الأولاد والخراف والطيور والفراش مع بعض.. في الحقل والحارة...

لم تمتزج حياتهم بتراب الأرض الحنون، وسلسبيل الجداول العذبة... الغربة يدرسونها مع الموضوعات المختلفة في كتبهم، ويرونها في الطرقات، والأسواق، وداخل حجرات الدرس.

ليسوا من أبناء البلد، وليسوا وطنيين، في كل مكان يسمعون هذه العبارة!! إنهم أبناء الأجانب، (المتعاقدين)، وليسوا من هذه الأرض، وأحياناً تلازمهم صورة المتسوّلين الذين يسألون الناس فيُعطون أو يُنْهرون...!!

يا ويح الغربة!! كم هي قاسية مظلمة مرة.. جرح مملّح .... علقم!!

وقف عبد الرحيم يصلي خلف الإمام، كان مضطرباً وقد بلغ حد الإعياء من هذا الصراع، كادت الدموع تتهمر من عينيه، وكان خائفاً محزوناً، وكأنه يترقب أمراً يترصّده ويلاحقه وماذا بعد؟ وتمتم في سره، يا رب!!!

يا الله.. يارب.. هكذا كان يهمس قبل أن يبدأ الصلاة، لقد ذبحتني الغربة، وقطعتني أشلاءً ومزقاً، واشتدّ الكرب وعظم البلاء، ولا ملجأ يا الله إلا إليك...

كان الإمام قد بدأ الصلاة، وأنهى قراءة الفاتحة... وعبد الرحيم يحاول أن يستجمع بقايا وعيه... صحا على صوت المصلين: آمين...

أسرع في قراءة الفاتحة، وحاول أن يعود إلى وعيه...

أصغى قليلاً للإمام الذي بدأ بتلاوة بعض الآيات، ولكن ذهنه كان مضطرباً.. أصغى مرة ثانية، شدّته الآية شيئاً فشيئاً، بدأ سمعه يستسلم لصوت الإمام الرخيم، نفسه جاشت بالحنين إلى فيئ القرآن الكريم، وآياته الحانية..

كان الإمام يقرأ ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون* نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون* نزلاً من غفور رحيم* ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين* ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم* وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم* وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم**﴾ .

كان صوت الإمام شجياً نادياً، كبر الصوت وتضخّم، ملأ الدنيا كلها، وكأنه يتنزل على عبد الرحيم من السماء، كانت جنبات المسجد، وذرات الهواء تهتف معه وتتلو، الأشجار والطيور، والثمار، والأرض، والطائرات، والقاعات، والبحار واليابسة: كلها كانت تتلو ويصغي لها عبد الرحيم في تلك اللحظات، لقد استسلم بكيانه كله لظلال هذه الآيات، وأصبح كله سمعاً مرهفاً، وحساً شفافاً واعياً... غمرته أمواج الأثير، وسرت في كيانه كله، ولم يعد يحسّ بما كان... أين الصور والذكريات و....؟

أين كنت قبل الآن؟ هل هي رحلة الضياع؟

كأنني أسمع الآية لأول مرة.. هل تنزّلت من أجلي، وحملتها القرون لتناديني في هذا اليوم، إنها كالندى الحنون على قلب الظامئ المحروم...

تناديني... نعم تناديني، تنادي زوجي وأولادي، وإخواني، تنادي كل الغرباء والمعذبين: ﴿**الا تخافوا ولا تحزنوا....**﴾ ﴿**نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة...**﴾

لم يستطع عبد الرحيم هذه المرة أن يدافع عبراته المنحدرة، لقد بكى وهو يستمع إلى قراءة الإمام، وغابت عنه كل الصور الداكنة، ذابت جبال الرّعب، وكهوف الظلام، ووحوش الخوف، وصور العذاب...

أصبحت نفسه صفحة بيضاء ناصعة، وجلت الآيات كل أحزانه، ودبّ في جسده نشاط جديد....

غاب التعب والغربة والخوف.. وخرج من المسجد وهو يدعو: اللهم اجعلنا من عبادك الذين آمنوا واستقاموا، وأنعم علينا بالصبر... نعم عاد نشيطاً وشعر أنه يحب كل الناس...

الشيخ والزعيم

- همس محمد أمين في أذن الزعيم الذي أحبه وسار في ركبه، وتحدّث عن أعماله ومآثره في كل مجلس فقال له:

يا سيدي: الشيخ عثمان.. ذاك العالم الجليل، صاحب المكانة العظيمة بين العلماء والمسلمين عامة.. وصاحب الكتب والمؤلفات المشهورة قد حضر إلى مدينتنا، وأرى يا سيدي أن يكون هناك لقاء بينكما، لأن لهذا اللقاء فوائد جمة، لا تخفى على دولتكم، لا سيما في هذا الظرف بالذات الذي تتّجه فيه مشاعر المسلمين نحو بعض القضايا الساخنة.

- أصغى الزعيم إلى كلمات مستشاره محمد أمين، ثم فكّر قليلاً، واستعرض ما لديه من مهمات ومواعيد وأعمال..ثم التفت إليه وقال: لا بأس.. لا بأس... لكن عليك يا محمد أن ترتّب الموعد في وقت مناسب، وأن تذكّرني به.

ثم استأنف حديثه فقال: كم سيمكث في هذه المدينة؟

- فأجاب محمد أمين: سيمكث خمسة أيام... نعم خمسة فقط.

- إذن حاول معرفة الوقت المناسب، الذي لا يكون لدينا فيه موعد أو عمل أو سفر... إننا مشغولون جداً في هذه الأيام كما تعلم.

- أمرك يا سيدي...

❋ ❋ ❋

كيف يمكن ترتيب هذا اللقاء بين الزعيم الذي تتحدّث الصحف والإذاعات كل يوم عن نشاطاته، وتنقل أحاديثه وتصريحاته، وبين هذا الشيخ الصالح الذي لا يأبه للمظاهر، ولا تخدعه الدنيا ولا يعرفه إلا من يسعى لذلك؟

وأطرق محمد أمين وهو يفكر:

سوف يسافر الزعيم غداً إلى أدرنه، وبعد غد سينتقل منها إلى أضنه، وبعدها سيعود إلى هنا ليحضر اجتماع المنظمات الشبابية والتي تضم عشرات الآلاف من المؤيدين والمناصرين لحركته، وسيكون لهذا الاجتماع أثره في الانتخابات القادمة، وسوف تنقل وسائل الإعلام كلماته التي سيوجهها لهؤلاء الشباب..

إذن يمكن أن نهيئ للاجتماع بعد هذا الموعد.. ولكن لا بد له من السفر إلى شرق البلاد، فهناك موعد مهم مع قواعد الحركة، والهيئات الداعمة لها.. ولا شك أن الزعيم سينشغل في التحضير لهذا اللقاء قبل سفره.. لأن آثار هذا اللقاء سوف تظهر في الانتخابات القادمة.. ولن ينتهي لقاؤه هذا حتى يحين موعد سفره إلى خارج البلاد... إنني أعرف أن وقت الزعيم لا يسمح له بمقابلة أحد في هذه الأيام: أعمال كثيرة، وزحام في المواعيد والمقابلات، لا يفرغ من لقاء إلا ليحضر اجتماعاً، ولا ينتهي من اجتماع إلا ليسافر إلى دعوة أو موعد في بلد من البلدان...

يا الله.. الحمد لك يا رب، إن نجْمهُ يصعد بقوة.. والجماهير تترنّم عند سماع اسمه، أو الإصغاء لكلماته وخطبه النارية.. ولا تملك إلا أن تهتف له كلما لوّح لها بيده، أو ظهر أمامها في أي مكان، وحيثما حل.... نعم... لا بد من وصوله إلى تحقيق أهدافه قريباً بإذن الله، ولكن اللقاء مع هذا الشيخ الجليل مهم، وضروري، وأخشى أن تفوت الفرصة، بل إنه ليست من السياسة أن يحضر الشيخ عثمان إلى هذا البلد ولا يلتقي بالزعيم..

صحيح أن الشيخ لا يشتغل بالسياسة ولا يتدخل فيها، ولا يعرف الأحزاب ولا يدخل في معادلاتها، لكنه صاحب رأي وفكر وحكمة، إنه داعية مشهور، وصاحب مدرسة تربوية دعوية تتسم بالتعقّل والصدق، يحبه الناس ويقدرونه، ويتمتع باحترام جميع المسلمين بل يحوز على إعجابهم رغم اختلاف آرائهم ومشاربهم..

ويكفي ذكر اسمه بين المثقفين حتى تسمع كلمات الإعجاب والثناء.. وقلّما تجد عالماً اجتمع الناس على محبته وتقديره واحترام آرائه... والثناء على مواقفه كما اجتمعوا على الشيخ عثمان...

آه ... أخشى أن لا يتحقق هذا اللقاء... إن الزعيم بحاجة في هذه الظروف إلى الاجتماع بالشيخ عثمان أكثر من أي وقت آخر.. نعم نعم الاجتماع المنتظر مهم وضروري.

غداً...لا يمكن تحقيق هذا الأمل.. وبعد غد.. لا يمكن أيضاً.. إذن فليكن ذلك في يوم الأربعاء وقبل أن يسافر إلى شرقي البلاد، نعم.. هذا أفضل وقت لتحقيق اللقاء...

❋ ❋ ❋

كان محمد أمين يشعر بحيرة حقيقية متزايدة من أمر هذا اللقاء، لقد مضى يومان وسيأتي الغد... ولكن لم يَبْدُ له أن في الإمكان تحقيق أمله... ومكث يفكر مليا في الأمر.. ثم انتفض فجأة وهو يردد: نعم... نعم... سوف يتحقق اللقاء بدون ترتيبات ولا موعد مسبق، وإلا ضاعت الفرصة..

إنني أعرف الزعيم.. لا يخضع لأحد، ولا يقتنع برأي إلا إذا رأى المبررات الكافية لهذا الرأي، وصحيح إنه يحب لقاء الجماهير ومقابلة الناس، والاجتماع بالشخصيات المختلفة.. ولكن هذا الأمر يختلف تماماً.. إنه يجتمع هناك بجماهير مُعجَبَة به، ومؤيدة له تهتف باسمه وتتجاوب مع كلماته وخطبه، ويقابل الشخصيات الكثيرة، ولكنها تسعى للقائه، تطلب الموعد وتنتظر الفرصة لكي تحظى بالاجتماع به... أما هذه الفرصة التي أخشى أن تضيع، فإنها شيء آخر... نعم شيء آخر..

* * *

انتهى الزعيم من لقاء المنظمات الشبابية وهو يمتلئ نشوة وزهواً، ويزداد ثقة بالنجاح في المستقبل القريب... وكان أثناء عودته إلى مقر إقامته يفكر في اللقاء القادم في شرق البلاد.. وهو يعدّ نفسه لاقتحام ذلك الحصن الذي ظل مغلقاً على حركته، وحكراً على الأحزاب الأخرى التي عملت منذ فترة طويلة هناك.. بينما لا يملك هو إلا بعض المؤيدين والهيئات التي تدعمه لشخصه أكثر من دعمها لما يدعو إليه من أفكار وسياسات...

وأما محمد أمين فلقد ترك موكب زعيمه ليتصل بالشيخ عثمان ويرتب معه أمر هذا اللقاء..

- سماحة الشيخ عثمان...؟

- نعم... نعم.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- يا سيدي إنني سأتشرف بمقابلتكم بعد قليل - إن شاء الله - مع دولة الزعيم، فهل يمكن ذلك يا مولاي؟

- أهلاً بكم.. على الرحب والسعة.. إننا في بيوتكم، وفي كنفكم، ومن واجبنا أن نسعى إليكم، لولا الصحة التي تعلمونها..

- بارك الله بكم يا مولاي، إنني سأبلغ الزعيم بذلك إن شاء الله ونتشرف بلقائكم..

دخل محمد أمين على الزعيم الذي كان يتحدث مع عدد من أركان حركته ومساعديه وأعوانه.. واتجه - بصورة توحي بالجدية - إلى الزعيم ثم انحنى وهمس في أذنه بلهجة تدل على الأهمية البالغة:

- يا سيدي - أعرف كثرة مشاغلكم - وما يدور في ذهنكم من أمور كثيرة وما لديكم من مواعيد وأعمال - أعانكم الله - ولكنني لمعرفتي بأهمية اللقاء مع الشيخ عثمان، وخوفاً من فوات هذه الفرصة فلقد رتّبت موعد اللقاء في هذه الساعة!!

- كيف...؟ بدون موعد سابق... وأنت تعلم أننا نتهيأ للسفر ولا بد من بحث بعض الأمور لهذه الرحلة الهامة...

- نعم.. نعم..! ولكن مع ذلك أرى أن يتم هذا الاجتماع الذي سيكون له أثر طيب إن شاء الله... لقد رتّبت الأمر يا سيدي...

- لعلك اتفقت مع الشيخ على شيء؟

- نعم يا سيدي - معذرة - فإن حرصي على هذه المقابلة جعلني أتصرف بهذا الشكل، إن نتائج ذلك سيكون خيراً على حزبنا وعملنا إن شاء الله... إنه رجل كبير... يحبه كل الناس و....

- إذن سنذهب نحن إلى مقابلته؟

- نعم إن سمحتم... اعذرني لهذا التصرف.. ولكن لن يكون بعده إلا النجاح تلو النجاح بإذن الله، وأنت تعلم مدى حرصي على نجاحكم، وحبي لكم، وإخلاصي في تقديم المشورة لكم، ولهذا أخذت موعداً من الشيخ لهذا اللقاء لأنه إن لم يتم في هذه الساعة فلن تجد فرصة أخرى قبل سفر الشيخ.

- ولكن كيف سنذهب إليه و...

- يا سيدي، لتكن مفاجأة... وسوف يكون لها وقع القنبلة إن شاء الله... اطمئن لخادمكم المخلص..

- لا بأس... لا بأس... تصرّف..

❋ ❋ ❋

خرج محمد أمين والسرور يملأ نفسه... ثم أبلغ سائق السيارة أن يستعد لكي يمضي مع الزعيم إلى موعد مهم...

وبحث عن صحفي تربطه به علاقات خاصة ثم همس له أن يستعد لاصطحاب الزعيم إلى هذا اللقاء...

❋ ❋ ❋

قبل أن يركب الزعيم مع مستشاره وأحد الصحفيين السيارة كان محمد أمين قد أفهم السائق كيف يمكنه الوصول إلى مكان اللقاء

ولكن السائق الذي كان يصطحب الزعيم في سفره ومواعيده ولقاءاته لم يستطع كتمان استغرابه... لذلك سأل محمد أمين باستغراب:

- إلى أي مكان سوف نذهب؟

- إلى حي الصناعة، شارع ٤، فندق مكة..

- هل توجد فنادق في تلك المنطقة؟

- نعم، قلت لك فندق مكة..

- هل أنت متأكد أن في هذه المدينة فندقاً اسمه فندق مكة؟

- نعم، نعم... لا تكثر الجدل... إنه في الطرف الأيمن بعد انتهاء حي الصناعة، وقريب من سوق الخضار.. عند ملتقى الجسور الثلاثة.. وأمام المقاهي الشعبية..

- لكن الطريق إلى هناك مزدحم...

- اتبع الطريق الذي رسمته لك، وسوف تصل إلى الفندق بسهولة. تناول السائق مخطط الطريق إلى هذا الفندق وتمعّن به.. ثم هزَّ رأسه علامةً على إدراكه للسبيل الذي سوف يتبعه أثناء هذه الرحلة القصيرة..

* * *

مضت السيارة وهي تخترق الشوارع الخلفية الضيقة والحارات المزدحمة، ينعطف السائق بها شمالاً ثم يميناً، ويدخل في هذا الزقاق لينتهي إلى شارع خلفي آخر...

لم يكن سابقاً يعرف مثل هذه الأماكن.. اصطحب الزعيم في

لقاءات كثيرة ورحلات عديدة... ولكنها كانت سهلة واضحة، هناك فنادق ضخمة شاهقة (المريديان، والكونتيننتال، وماريوت وشيراتون...) كنا نصل إليها سريعاً، الطرقات إليها واسعة، وأمامها مواقف ضخمة، تقف السيارة أمام المدخل الرئيسي حيث يصطف موظفو الاستقبال بابتساماتهم وألبستهم النظيفة الجميلة.. إنهم يعرفون كل الزعماء والمشهورين...

لا أدري لماذا اختار الزعيم المجيء إلى هذا الفندق وفي هذا المكان...

وكان السائق بين الفينة والأخرى ينظر إلى الورقة التي رسم فيها محمد أمين الطريق إلى الفندق خشية الضياع..

أما محمد أمين فكان يتحدث في هذه الأثناء مع الزعيم كي لا يشعر بضيق من هذه الشوارع والحارات، ولكنه في الوقت نفسه لا يغفل لحظة عن مسار السيارة، ومراقبة الطريق خوفاً من خطأ السائق..

- كم سيكون الشيخ سعيداً بلقائكم يا سيدي..

- ولكن أخشى ألا يكون الوقت مناسباً..

- لا ... إنه مناسب جداً.. الشيخ يا سيدي طراز آخر في هذا الزمان، إنه عالم كبير.. له شأنه وشهرته في بلاده خاصة وفي العالم الإسلامي عامة.. أعماله ودعوته امتدت إلى أماكن بعيدة.... وتلاميذه أصبحوا ينتشرون في بلدان مختلفة.. ورغم كثرتهم وتعدد أجناسهم ولغاتهم يحافظون على نسبتهم إلى مدرسة الشيخ ودعوته...

ومع ذلك فهو متواضع جداً...

راح الزعيم يتصوّر الشيخ، وينتقي العبارات المناسبة التي سوف يخاطبه بها، ولعلّ بعض الموضوعات تكون مناسبة لأتحدث بها أمام الشيخ... مثلاً قضية الأقليات الإسلامية في عدد من البلدان.. مسألة العناية بالمدارس الدينية.. الاهتمام بالقضايا الإسلامية والتضامن الإسلامي... نعم ... نعم سيكون هذا مناسباً في هذا اللقاء...

- لكن يا أستاذ محمد أمين لا تنس أننا مرتبطون بموعد مهم.. ولا بد لنا من العودة سريعاً...

- نعم يا مولاي.

* * *

توقفت السيارة ونزل السائق ليفتح الباب للزعيم... وتنفس محمد أمين الصعداء.. لوصولهم إلى الفندق.. ولكنه ما زال مشدود الأعصاب، ينظر إلى وجه الزعيم ليقرأ ما يدور في نفسه من أفكار وخواطر ومشاعر إزاء هذا اللقاء، والمكان...

ولم يكن في حسبان الزعيم أن الشيخ عثمان، ينزل في هذا الفندق الصغير!! صحيح أن عليه سمات الهدوء والنظافة، ولكنه ليس من الفنادق التي يراها عادة.. لا يدري هل يصنّف في قائمة الفنادق في هذه المدينة الضخمة أم لا؟؟.. لا... لا يمكن أن يكون إلا فندقاً متواضعاً. ولم يكن يفكر لحظة أين يسكن الشيخ في هذه المدينة التي ترتفع أبنيتها إلى عنان السماء... أو تمتد على شواطئ البحر الهادئ وسط أضواء ملونة أخاذة...

كل الذين يزورون هذه المدينة من المشاهير يقيمون في الفنادق المعروفة... وهي كثيرة بحمد الله.. بعيدة عن هذه الضوضاء والازدحامات، وأصوات السيارات والباعة...

ومشاعر كثيرة تتاوبت الزعيم وهو يقف في (بهو الفندق) الصغير.. بماذا كان يفكر...؟ هل قفز ذهنه مرة أخرى إلى رحلته المهمة.. هل بدأ يشعر بأن مستشاره محمد أمين أخفى عنه شيئاً؟...

هل شعر بشيء من الضّجر وهو يرى موظفي الفندق ينظرون إليه بشيء من الاستغراب لحضوره إلى فندقهم المتواضع؟.

لم يعد مفيداً كل هذا.. ولم يعد هناك مجال للتفكير في المكان أو الجديد أو القديم، والفخم والبسيط، وهل هناك من فائدة في التفكير عن سبب نزول هذا الشيخ في مثل هذا المكان، ولماذا لم يقم في أحد الفنادق الضخمة؟ ومن الأفضل أن تمضي المقابلة بأسرع ما يمكن، للعودة إلى تهيئة الأمور للرحلة القادمة... وفي هذه اللحظة كان محمد أمين يضغط بشدة على (زر) المصعد الوحيد ثم يكرر ذلك مرات لكي ينزل ليصعد به الزعيم إلى الطابق الذي يقيم فيه الشيخ...

ونسي وهو في هذه الحالة أن يهمس بأذن الموظف المسؤول لإخبار الشيخ بوصول الزعيم..

وفتح باب المصعد...

- تفضل يا سيدي..

لم يكن المصعد كذاك الذي يعرفونه بالفنادق الضخمة بل كان

مصعداً صغيراً لا يتسع لسوى أربعة، نعم أربعة فقط، ولكن عناية الله أنقذته من (ورطة محتملة) فالزعيم لم يصطحب إلا واحداً غير محمد أمين.. ماذا كان سيفعل لو أن معاونيه ومرافقيه المقربين حضروا معه كما هي العادة؟ هل سيصعدون على الدرج إلى الطابق السابع على أقدامهم.. أم ينتظرون حتى يعود المصعد، ويستخدمونه لمرات وماذا سيكون أثر ذلك عليهم؟ ألا تكون فرصة أمام بعض خصومه؟

الحمد لله.. الحمد لله... إن الله بنا رؤوف رحيم لإبعاده عن الزعيم؟

عندما عرف الشيخ بوصول الزعيم، نهض من مجلسه بهدوء وخطا نحو الباب واستقبله بحرارة وترحاب... وقدم له تلامذته الجالسين حوله.. ثم جلسوا على المقاعد المتقابلة...

لم تفت الزعيم الفرصة لينظر بلمحة سريعة إلى الغرفة الصغيرة التي كان ينزل بها الشيخ..

ثلاثة مقاعد متحركة، تتحول عند الضرورة إلى أسرّة للنوم، والمسافة بين هذه المقاعد لا تتجاوز المتر الواحد.. وعند جلوس الجميع كانت أرجلهم تكاد تتلامس من ضيق المسافة..

ألم يكن من الأحسن ترتيب الاجتماع في مكان واسع ولائق؟ هناك (قاعات) خاصة للاجتماعات واللقاءات.. لو أوضح لنا محمد أمين ذلك لكان بإمكاننا ترتيب الاجتماع في مكان آخر...

* * *

كان الشيخ يرحب بالزعيم ويقابله بابتسامة حانية، ثم جلس فبدا بجسمه الضعيف، وثيابه البسيطة، ومظهره المتواضع، ولكنه لم يكن يأبه لكل هذه المظاهر.

المكان لديه.. ليس في هذه الغرفة الضيقة أو المنزل المتواضع إنه الكون الفسيح الممتد... من شرق الهند إلى أقصى الغرب في إفريقيا.. دنيا واسعة، ورحاب ممتدة، ما بين السماء والأرض، عندما يمعن في الأشياء يجوب في مسافات الأرض... ويتجول عبر الأزمان، ويدوس بين القرون التاريخية، ويقلب صفحات الأمم، لم يحس في لحظة من اللحظات بضيق المكان أمامه... كان يشعر أن الوقت لا يتسع لهذه الرحلات البعيدة... وليس في مقدور عمره القصير أن يستوعب كل هذه الآفاق التي يضمّها فكره ونفسه..

نظر إلى الزعيم الذي كان يلبس كعادته الثياب الأنيقة التي تنمّ عن مظهر حسن وذوق رفيع.. وكان فارع الطول قوي البنية، في وجهه نضارة وعزم، وهو في جملته رجل مفطور على الزعامة، هي في إهابه، وهو رجلها الذي فطر عليها ولها..

ولكن الشيخ لم يقف في نظراته عند كل هذا... كان يستشفّ ما يحمل الزعيم في طياته من أفكار ومشاعر... وما ينطوي عليه من مقومات الصدق، والإخلاص... وهذا عنده جوهر الإنسان..

بعد لحظات من الوصول كان الزعيم يبحث عن عبارات يبدأ بها الحديث مع الشيخ لكي تمضي المقابلة، ويعود لمقره استعداداً للرحلة المهمة التي سوف يقوم بها مع أركان حركته.. ولكن الشيخ لم يترك له فرصة لكي يمضي بعيداً في تفكيره، بل بادره بالحديث الجاد الذي لم يكن الزعيم يتوقعه أو يتخيله... وبدأ يمطره بالكلام الواضح المتزن... النفّاذ.. والأفكار المهمّة البعيدة في وقعها ودلالتها...

وبدأت صورة الشيخ تتغير شيئاً فشيئاً، بل كانت تتطور بسرعة في نظر الزعيم حتى أصبح عنده رجلاً آخر..

وكان الحاضرون يصغون بعمق إلى حديث الشيخ الذي توجّه به إلى الزعيم، وبدا لهم وكأنه قائد في ميدان حاسم، يصدر أوامره إلى جنده ويوضح لمرؤوسيه معالم المعركة بجدية واهتمام، ودقة..

وكانت كلماته تنفذ إلى أعماق سامعيه... نعم تُصوِّر لهم بُعدَ المهمة المناطة بهذا الزعيم وأمثاله في هذا العصر.. وتجمع له أطراف التاريخ كله. وتجربة الأجيال ليكون على بيّنة من موقع أقدامه، بل كان في ما يقوله للزعيم شيء لم يتعود أن يسمعه من قبل.. لم يكن ذا نبرة حادة مثيرة تلهب المشاعر. ولا عبارات فيها شيء من الوعظ واستحثاث الهمم للقيام ببعض الواجبات، وإنما كان حديثاً عميقاً يتّسم بالهدوء والرزانة، ولكنه يتغلغل في الوقت نفسه إلى أعماق النفس ومنحنيات الفكر والقلب معاً، فإذا بسامعها لا يدري كيف ينفعل بها، ومن أين تدخل إلى كينونته، إنها تنقضّ عليه من كل مكان فإذا به وكأنه بين يديها أرضاً عراء، يزرع فيها هذا المتكلم أشجاراً،

ويغرس بذوراً ويكشف عن معادن وكنوز، ويشير إلى ما فيها من حشرات وسموم ووحوش مخيفة، كيف تمّ ذلك لا يدري، لكنه أحسّ بذلك إلى درجة اليقين، لقد تغلغل كل هذا في أعماقه وسرى في كيانه كله...

أصغى الزعيم ومحمد أمين إلى الشيخ، وأصغى الحاضرون. ارتعش جسمه، وتضاءل وتضاءل في نفسه حتى أصبح يرى الشيخ طوداً شامخاً، وكأنه يسمع في نبراته الملايين المسلمة تخاطبه، وتطالبه، تحدّد له الأهداف وتبيّن له الواجب.. كان يسمع داخل كلمات هذا الرجل البسيط دعوات الأجيال اللاحقة للزعيم لكي يحمل رسالة الدعوة للإسلام من جديد ليفتح بها البلاد وقلوب العباد.. وفي لحظة من اللحظات انتابته رعشة قوية حتى كأنه يتمثل الصحابي الكريم أبا أيوب الأنصاري وهو ابن التسعين على صهوة جواده يكبّر، والمسلمون خلفه يكبرون...

والسور الكبير والقلاع الضخمة، والسفن والأبراج كلها تهتزّ من نبرات صوته، كان نداؤه قوياً حياً في سمعه وقلبه...

وفي لحظة أخرى كان يسمع صوت الخليفة العثماني الشاب محمد الفاتح وهو يدعو جنده للصبر والإقدام، ويعدهم بالفوز والنصر، ويبشرهم ببشرى رسول الله ﷺ بفتح القسطنطينية على يد الجند المؤمنين والقائد المؤمن الفاتح..

ولكم مرت صور من التاريخ الإسلامي، مشرقة ودامية، رايات النصر الخفاقة، وليالي السقوط والانهيار السوداء الحزينة..

وكلها كلها كانت تهزه هزاً عنيفاً وعميقاً، وتصرخ به أنك مسؤول عن هذا مسؤول مسؤول.. فالزعامة هنا، وليست في ميادين التصفيق واحتفالات الأتباع، فحذار حذار أن تضيِّع الطريق، أو تصبغ ماضي أمجادك بالعار والتخاذل، أو الغفلة والضياع...

لم يدر الزعيم كيف انقلبت كلمات الشيخ إلى معارك، وساحات وجهاد، وعِلم، وجنات وروضات، وجحيم ونيران...

«إياك إياك أن يتحوّل هذا البلد إلى أندلس ثانية وتقع في يد النصارى وأعداء الإسلام، وعهد عليك ألا تتوانى في العمل على أن تبقى مآذن أبي أيوب، ومساجد الفاتح تصدح بالتكبير...».

«كان أبو أيوب قد جاوز التسعين عندما واكب الجيش الذي حاصر القسطنطينية، ولكن سنَّه هذه لم يجد فيها مبرراً للمكوث في المدينة المنورة والتخلف عن الجهاد والفتوح... كان له من المفاخر ما يكفيه شرفاً وكرامة... لقد كان بيته أول بيت ينزل به رسول الله ﷺ في المدينة بعد الهجرة، وكان أول أنصاري يتشرف بخدمة رسول الله ﷺ من بين كل الناس هناك، ولكن ذلك لم يبرر لأبي أيوب أن يترك الجهاد، ويتخلف عن جيش الفتح»...

«وأنت اليوم تقف مسؤولاً عن إرث أبي أيوب الأنصاري الذي ترك المدينة المنورة وجاء مع الجيش لفتح القسطنطينية، ثم ينال الشهادة ويبقى حياً في هذه المدينة العظيمة، وشاهداً على مواصلة الدعوة والجهاد..»

«وأنت اليوم مع إخوانك حراسٌ لبلد الفاتح الذي تشرف بالنصر، والفوز ببشارة رسول الله ﷺ ... وهذه المدينة، بمآذنها ومساجدها ومياهها وبرها ترقد على آلاف الشهداء الأبرار، والدماء الزكية التي أريقت لرفع صوت الأذان في كل أنحائها..»

وهي لا تزال مطمع الأوربيين، مطمع النصارى واليهود الذين يتحرقون ويخططون لكي تعود إلى حظيرتهم، وتتحول مساجدها إلى كنائس وبيع، وتصبح أوقافها ومدارس القرآن فيها إلى دور للملاهي وأماكن للعبث والمجون. وأنت اليوم على هذا الثغر الذي يمثل تراث هذه الأمة ومجدها.. مجد بني العثمان الذين حاربوا أوربا، وفتحوا البلدان وقدموا للناس دعوة الإسلام..».

تضاءل الزعيم أمام نفسه، لم تعد الدنيا في عينيه إلا لعبة صغيرة، صغيرة.. ولم تعد صورة الأتباع والمعجبين والجماهير التي تحتشد لسماع كلماته، أو الترحيب به والتأييد والتصفيق لم تعد كل هذه الصور تشغله أو تقلقه...

ولم تعد عناوين الصحف والمجلات، وصور الاحتفالات والمهرجانات وبرقيات وكالات الأنباء، وإذاعات الدنيا تهز كيانه... هذا الشيخ البسيط، يتكلم من علٍ شاهق شاهق..

وكأنه يرى صورة الدنيا على حقيقتها... يرى المجتمعات بوضوح ودقة، يرى كيف تتجه التيارات، وتتكون الألوان بوضوح وكأنه يعلم أن هذه الصور المتناثرة، والحركات المحدودة والألوان الغامقة ما هي إلا ذرات وسط تيار كبير أو تيارات تتصارع، وأن المشهد الحقيقي لا يتضح إلا بمثل

هذه النظرة الشاملة التي تستطيع أن تدرك هذا وتجمع الفتات والأجزاء والأطراف لرسم الصورة المتكاملة...

وحينها تبدو المجتمعات والأحداث على حقيقتها، ويعرف أصحاب هذه النظرات الشمولية كيف تسير المجتمعات وإلى أين تتجه التيارات...

وكان الزعيم يعرف أن الشيخ لم يكن في يده سطوة مال أو قوة مادية، ثيابه بسيطة بساطة الزهاد، ومظهره ينمّ عن ترفّع صاحبه عن الدنيا ونأيه عن كل مُلهياتها ومظاهرها، وحياته بعيدة كل البعد عما يألفه القادة والسياسيون والمتنفذّون...

ولكنه أحس بأنه شيء آخر.. طراز فريد من الناس... أمة في رجل، رجل حكمة وعلم ودعوة...

يا الله... كلماته نفذت إلى أعماقي، وصهرت كل ما في داخلي وأعادت ترتيب الأمور في ذهني بطريقة جديدة...

لا أعرف كيف حدث كل هذا في لحظات، حاولت أن أتماسك وربطت جأشي، وأردت أن أصغي إليه كما أصغي لأقرب أنصاري، وللزعماء والكبار والمستشارين المقربين من حولي، ولكن كلماته اقتحمت كل هذه الأشكال والأسوار...

حقاً لقد كان كالفاتح لهذه المدينة، لم تصمد أمامه القلاع والحصون والجيوش... اخترق كل ذلك ودخلها فاتحاً ثم أعاد بناء هذه المدينة من جديد، وبروح جديدة...

وهكذا أيضاً كان الشيخ معي، كلما حال دونه حصن اخترقه بقوة نفَّاذة حتى استسلمَتْ له، كما استسلمَتْ تلك المدينة قبل قرون...

- ها هو يهدم أطلالاً وأشكالاً وهياكل في داخلي بنتها السياسة، ويقتحم أسواراً وقلاعاً أقامتها الزعامة، ويدخل إلى أعماق داخلي بقوة وإصرار ومحبة، لقد ملأني بأشواق غريبة، وحب جديد.

- نعم... نعم.. رأيته حيناً كالجندي المؤمن الذي كان يقف إلى جوار أبي أيوب... فإذا كبّر الصحابي اقتحم الصفوف وجندل كل من يحول دون تحقيق هدفه الأسمى..

ورأيته حيناً كالفاتح... الذي حمل راية أجداده، وأصغى لنداء الحبيب ﷺ الذي قال: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش» واقتحم الأسوار وحقق البشارة حين كان في يمناه النور وفي قلبه الإيمان...

أيَّةُ وَضاءة لتلك الكلمات التي سمعتها من الشيخ، إنها نورانية وكفى!!

* * *

عندما انتهى الشيخ من الحديث، كان الزعيم قد شعر براحة داخلية عميقة، كأنما نفض عن كاهله أعباء رحلة شاقة وشائكة... لقد كان لوقع هذا الحديث طعم خاص لم يذق مثله قبل ذلك... غابت عن ناظريه صور الجموع التي تحتشد لسماع خطاباته... وفرغ قلبه من صدى الهتافات المؤيدة والمشيدة بزعامته... كم من الأمور بدأت تتفتح من جديد في نفسه، وكم من الأمور شعر بأنها بدأت تذبل وتزول...

«نعم أعاهدك على حمل الأمانة، والصبر عليها والثبات من أجلها، إنني ما دمت حياً فلن تكون هذه الأرض إلا للإسلام»..

«لقد شعرت بقوة عجيبة، وأنت يا سماحة الشيخ تذكر الصحابي الجليل، حين كان في التسعين من عمره يجاهد لفتح القسطنطينية، وأكرمه الله بالشهادة، فكان ذلك قمة الفخر والكرامة والانتصار»...

«لقد ملأت قلبي بالثقة والأمل... بعد أن تذكرت السلطان الفاتح وهو يقف أمام الحشود الصليبية فيهزمها، ويخترق الأسوار، ويفتح القلاع، ويرفع اسم الله فوق هذه المدينة العظيمة...»

يا شيخي المؤمن... كلماتك كانت لي فتحاً، أعطتني بصراً في هذا الزمن المعتم، ذابت من صدق الكلمات كل الأستار المصبوغة... فاقبل مني العهد... اقبلْ أن أُشهدكَ العهد مع الله على أن أبقى سداً أمام الهجمات الجهلاء... هجمات الصليبيين واليهود، وسأبذل روحي من أجل الإسلام...

❋ ❋ ❋

نهض الزعيم... وفي عينيه بريق دموع... اعتذر للشيخ بكل تواضع وهو يقول:

يا سيدي.. أتمنى أن أبقى بين يديك طويلاً، اليوم شعرت أن الطريق طويل طويل.. وأن للجهد الذي يبذله المسلم صادقا طعماً آخر...

تمنيت أن يكون لديّ الوقت لكي أغرف من بحر العرفان، ولكي يغتسل قلبي في أضواء الصدق.. إني تلميذ أحتاج إلى دروسك ولكني - وللأسف - لديَّ موعد ولا بد لي من الحضور، فاعذرني يا سيدي.

نهض وفي عينيه دموع، أحسّ بأن مهمته أضحت شيئاً آخر... السياسة... ما أصغر السياسة في كل الشوارع والحارات، وعلى قارعة الطرقات يبتاع الناس سياسة، لكن الدعوة فتلك تجارة الأنبياء، والصحابة، والمجاهدين، والدعاة والمصلحين...

وتلك لا ينالها إلا من يصدق في طلبها، ويبذل من أجلها..

انكب الزعيم على يدي الشيخ يقبلها وفي عينيه دموع، ويقول: أرجو أن تدعو لي يا سيدي، لكي أحتمل عناء الطريق ولكي يهديني ربي سواء السبيل...

ومضى...

الحلم والثعبان

(قصة رمزية)

اللوحة الأولى :

بعد أن اربدّ وجه الدنيا، وامتلأ الجو بكل الجراثيم الفتّاكة، ولم يعد أحد يستمتع بهواء نظيف، أو منظر بريء، أو رائحة عذراء، وأصبح الليل يزحف نحو النهار حتى كادت الظلمة أن تمسح وجه النهار، وتطمس ضياء الشمس، أصبح السراج حلماً...

السراج: ضوء ـ ولو كان خافتاً ـ ولكنه يشد الأبصار التائهة نحو الهدف.

والسراج: نور ـ ولو كان ضئيلاً ـ لكنه يحدو للسائرين في الظلمة نحو الوجهة الصحيحة.

والسراج: رمز ـ ولو كان صغيراً ـ لكنه يوحي بالأمل ويقهر الاستسلام إلى العواصف، ويثير في قلوب العاشقين للنور حرارة السعي لمجابهة الظلمة الزاحفة. ويقولون: هذا الفتيل المشتعل، خافت وضئيل وصغير، ولكنه استطاع أن يزيل من حوله سدف الظلام، ومن هنا غدا أملاً وراية وهدفاً...

* * *

اللوحة الثانية :

في جلسات الأستاذ عبد الرحيم مع تلامذته ومحبيه فوائد كثيرة.

هو رجل جلد صبور مخلص، ولديه في جعبته علم وحصافة ودأب وإخلاص.

يعجن كلماته بالمحبة والحنو، ولا يقدم حديثاً إلا ومعه سبل الوصول إلى تنفيذه...

هو كالسراج، لا يخاف من الظلام، ولا يرى في الجهد الصغير، أو الكبير مضيعة للوقت..

في كل الدروب التي يمشي فيها يخاطب القاعدين بثقة و حنو أليف لكي يستأنفوا السير..

وفي كل الحقول التي يمر فيها، يلقي بذوراً مفيدة لعل لله - عز وجل - يكتب لها أن تصبح زرعاً وشجراً فتعطي ثمراً، وكثيراً ما يكون ذلك.

لا يبخل بما يملك، وما يملكه - في نظره كثير - هو يملك الوقت، والعافية، والقدرة على مخاطبة الناس بالكلمة الطيبة، فلماذا لا يستغل هذه الثروات في زرع الخير، وهكذا كان يفعل..

❋ ❋ ❋

اللوحة الثالثة :

كل الذين كانوا يحبون الكلمة الطيبة أحبوا فكرة السراج. والكلمة الطيبة أخذت شرفها من نور الله للأرض من كتابه الكريم.

واستمدّت شذاها من مشكاة النبوة التي ملأت الأرض بالعطاء الخيِّر.

ولما كثرت كلمات الكفر باسم الفن، وأصبح المجون - في اعتقاد بعضهم - يطهّر ويحرّر، وأعلنوا الخروج على ما شرع الله، ارتفاعاً إلى منزلة الألوهية، والجهر بالسوء خلقاً مقدساً[1]. عندها أصبح الظلام أكثر قسوة على أصحاب البصيرة..

(١) من كلمات أدونيس ورفاقه.

وفي الليل ينشط أعوان الشيطان، وتكثر الدعوات إلى الخيانة، وتنعقد الأحلاف السوداء لقتل الكلمة الطيبة، والرائحة العذراء، وكل دعوات الأنبياء والرسل..

ولهذا صارت الدعوة إلى السراج جهاداً مشروعاً، ووفاء بعهد الله، ودفاعاً عن الطهر والبراءة، والإنسانية، والجمال، وإذعاناً لشرع الخالق عز وجل..

وحماية للأجيال من عهر الكلمات، وخيانة الصور، وبذاءة العبارة، وفكر الإلحاد والمجون، وشذوذ الأخلاق، الدعوة إلى السراج أصبحت - في نظر الذين يخشون ربهم - فرضاً قبل أن تجتاحهم الآثام، ويصبحون من حصب جهنم. وفي كثير من الدروس والجلسات، كان الأستاذ عبد الرحيم يقول: أصبح - الآن - وضع السراج هنا في هذا الدرب من فروض العين، وعلى الصادقين في محبة الخير أن يشمّروا عن ساعد الجد لأداء هذا الواجب..

وفهم كثيرون ما يريده الأستاذ، بل كان بعضهم يفكر منذ وقت بعيد بمثل هذا، ولكن لا يعرفون السبيل إلى ذلك..

وفي زمن الحصار والفوضى، لا بد من فدائيين يعرفون كيف ينسلّون من الحشد المجنون لوضع الصوى لمن ينشد الخير وفك الحصار، والخروج من المأزق..

كان كثيرون يعرفون أن هذا الزمن زمن القهر، ولا بد من الفدائية التي ترفع راية الشهادة لتحديد القدوة لمن ينشد الخير...

وفي زمن المجون لا بد من أطهار يرفعون راية الطهر والإيمان للمحافظة على صورة الإنسانية لمن ينشد الخير والبراءة...

❋ ❋ ❋

اللوحة الرابعة :

السراج.. السراج... السراج... مطلب وهدف ووسيلة.

السراج ضوء يشد الأبصار التائهة نحو الهدف..

والسراج نور يحدد الوجهة للسائرين في ضياع الظلمة.

والسراج شذى طهور للذين يرفضون أن تصبح رائحة الخنى عبيراً للأجيال..

والسراج رمز عذب، يوحي بالأمل والعمل لكل الذين تتفتح بصائرهم على أقدار الله.

❋ ❋ ❋

السراج... السراج.. لماذا لا نشعل السراج، لماذا لا نعلقه فوق السارية، في الزاوية المفترق، ونقدم له الزيت الوقود الصافي، ونجعله - هنا - في عمق الدرب والسائرين، لكي يهتدي بوجهته القاصدون لعبور الدرب..

السراج... السراج.... لنكن أصحاب النقب، وصوت التكبير، وحملة الرسالة، ولنبدأ بتحضير السراج حتى يضيء الدرب...

❋ ❋ ❋

اللوحة الخامسة :

اجتمعوا قلة، ينشدون الخير، ويقفون في وجه العاصفة المجنونة.

كان هدفهم أن يمنعوا اجتراح المنكرات باسم الأدب، واستحلال الفواحش باسم الحداثة، وقتل القيم وتخريب الضمائر باسم التطور والفن.

وكان نبراسهم الذي يهتدون به كلمة الله الخالدة، ونبراس الإنسانية العليا، وصورة الأطهار على مدى الأزمان..

لم يجمعهم لون، أو لغة، أو نسب الدماء والأرحام.

الهدف الواحد، كان كفيلاً بأن يربط بين قلوبهم، ويشد عزائمهم نحو تحقيق هذا الهدف، ابتغاء مرضاة الله عز وجل...

واتفقوا على رفع السراج ، نبراساً لكل الذين يرفضون كلمة الكفر والعهر، والرذيلة..

واتفقوا على الدعوة للسراج طريقة لقهر الذين يدعون للظلمة أن تصبح مناخ الإنسانية المتفلّتة..

وتعاهدوا على أن يقدموا كل ما يستطيعون لحزم الأمر، وربط القلوب الطيبة في ضوء الحق، وعلى هدى الكلمة الخالدة، وسنن الأطهار الأبرار في كل الأزمان والعصور..

واتخذوا لأنفسهم شعاراً، وبرنامجاً، وقالوا لنبدأ على بركة الله، ولنكن خدماً للضياء الطهر، ومدداً للنور في هذا العصر، ومجاهدين في سبيل الله بالكلمة الطيبة...

اللوحة السادسة :

- في كل عمل كبير، لا بد من رجل كبير يربط بين عزائم الرجال، ويدفع المسير نحو الهدف برشد وحكمة وصبر، وكان الأستاذ عبد الرحيم قطب الرحى في ذلك..

رأى بالعزم والجد والمثابرة والصدق، كيف يتحول الحلم إلى أمل، والأمل إلى هدف، والهدف إلى مشروع إنساني طيب الشذى، عذب الصوت، قوي الحجة، عميق الجذور، ثابت الأركان، كان حريصاً على أن يكون الأساس متيناً.

كا يوصي أن تظل العزائم طاهرة القصد، قوية الفعل، وعلى ألا تؤثر الجراثيم المنتشرة في المناخات التي نعيشها على أحد من الرجال..

وكان المشتركون يلتقون في رحابة صدره، وعلى ضوء كلماته، وطرحه أفعاله، وخطوات طريقته الواضحة البيضاء.. منهم من جاء مخلصاً يقدم الوقت والمال والجهد لصنع السراج وإضاءة الدرب.. ومنهم من أحب الكلمة الطيبة فأتى يدافع عنها في هذا المشروع المنير..

ومنهم من كانت صنعته أن يسهم في المشروعات التي يرى أنها تقدّم بعض الخير للآخرين..

ومنهم من يرجو أن يكون واحداً ممن تسجل الأيام لهم اسماً وتحفظ صورة، وتكتب عنهم صفحة في الذكريات أو المذكرات..

ومنهم... ومنهم...

لا يعلم ما في القلوب إلا الله، ولكن العمل الطيب يحتاج إلى القلب الصادق، والنية الصادقة، والجهد المخلص.

كان الأستاذ عبد الرحيم يذكر إخوانه وتلامذته بذلك دوماً، ويخشى أن يكدر صفو العمل طمع الدنيا، وبروز المظهر وسوء النية..

ولكن الحماس الطيب، دفع هذه العصبة لأن تمضي، وتضع لمشروعها معالم محددة.

كان الإخلاص وقوداً في عمل الأستاذ.

وكان الصدق ضياء عند تلامذةٍ خُلص أحبوا فيه دفء الصدق، وحرارة الاستقامة، وإخلاص المقصد، وقوة العزيمة.

وفي هذا المناخ الصحي مضت هذي العصبة لتحقيق المشروع، وإضاءة السراج..

❋ ❋ ❋

اللوحة السابعة :

الشيطان مخلوق ماهر وخبيث.

له في كل المواطن حضور ورأي وهدف وحشود، له أخبار وطرق وسلاح، ولا يتعب في ليل أو نهار..

يرسل أتباعه لتخترق حجب القلوب، وتفعل في الأعماق، وتفتن النفوس..

ويرفع في درب الأطهار كل اللافتات الحلوة البراقة، التي - إن لم تفعل فعلها المأمول - عرقلت السير وأخّرت الوصول، إن لم تضلل الرؤى.

في عالم البشر له ألف حليف وحليف، لا يترك منحى أو علم أو فن، لا يغفل عن لون أو جنس أو دين، لا يتوانى من أن يصحب أعمى أو صاحب بصر وبصيرة.

يدخل للمسجد ودار العلم، وأندية العلماء، يجلس مع الصالح والشرير، ويصاحب الرجل والمرأة..

يشترك في كل مصالح الناس، ومشاريعهم، له ألف لسان ولغة، وله ألف طريقة وألف بيان.

يتظلل بالألوان التي تأتلف مع البيئة.

يتدثر بالمسكنة والحرمان والبراءة.

يمتطي حلو الكلمات، وحماسة العزمات، وبراءة السذّج البرءاء..

فلماذا لا يسهم في مشروع السراج إذن؟

ولماذا لا يفتش بين التلامذة النجباء للأستاذ، والمحبين لضياء السراج عن حلفاء؟

لقد أخذ على نفسه العهد على اختراق الجموع الطائرة ليضلل ويمنّي، ويستخلص الأتباع..

وهكذا بدأ ينفث حقده خططاً وعملاً..

ويبحث عن الألمعي الذي يتلوّن حسب البيئة والمكان والحال.

ووجد ضالته بين الذين يتصدرون المجالس، ويتقنون الحديث، ويفتنون الناس بعذب الكلام وغزارة الدموع.

كان كما يريد، يتلفع بثياب المتقين، وينحشر بين الصالحين، ويقف على رأس الخطباء المشهورين.

قال له: هنا كرسي جميل، ومركز خطير، ووعد بالنجاح والظهور، ومكانة تخترق الآفاق..

وتعاهدا، وكان بينهما ميثاق..

وكان على هذا الثعلب الأفعى، أن يصل إلى حملة المشعل، وأن يحمل باندفاع وقوة فكرة النور للبسطاء الأوفياء..

وهكذا كان، وأصبح أبو فائق داعية النور والسراج، ورفع رايته في كل محفل ومناسبة، وأصبح خطيباً يشار له بالبنان...

❋ ❋ ❋

اللوحة الثامنة :

كانت أسلحة أبي فائق خطب عصماء، ودموع كاذبة سحّاء..

كان له أنصار وسدنة وأعوان، وكانت له قوة وسند في كل الأنحاء..

بعد حين، صار كالأخطبوت بين أهل النور..

إذا حضر مجلسهم تسنم الرئاسة وصار يخطب ويفصّل ويوزع المهمات.

وإذا رأى جمعاً، نفذ إليه ليحبط كل مسعى لا يخضع لهواه وهدفه.

له صولات يسمع قعقعتها القريب والبعيد، ويذهل لها الصغير والكبير، ويضل في جلبتها وضوضائها الأعمى والبصير..

قلّما يستطيع السامع أن يتبين الخبث وسط عذوبة الكلام، والكذب عند تساقط الدموع.

وقلّما يصل المبصرون إلى تحسس السم الناقع الذي يخفيه لسانه وقلبه وفعله، فهو ابن الأمجاد، وصاحب الخبرات والمواهب..

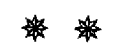

اللوحة التاسعة :

مرض الأستاذ الصالح وكبا...

كل الكلمات الحزنى عجزت عن رسم الصورة.

ينكفئ الصوت الدافئ نوحاً مبحوحاً وكئيباً.

يتوقف ركب المشعل كي يبكي فقدان الرمز..

كان الأستاذ الصالح منبع حكمة وصلاح.

وكان الأستاذ الصالح صوت القلب والعقل.

كان أبو فائق يراه جبلاً لا يعرف كيف يفعل إزاءه، أو يتخطّاه.

وكان عند تلامذته كالبرء لمن تصيبه رذاذات السم الناقع، التي بدأت تسري بين الركب الطاهر.

مات الأستاذ الصالح ومضى..

رب اغفر وارحم عبدك المجاهد لرضاك.

وارحم هذا الجمع من شر الشيطان.

وبكى الأخوة هنا وهناك.

وقام أبو فائق يبكي ويستبكي، ويعدد مآثر الأستاذ الميت.

وبكل تواضع وفدائية تقدم ليكون الرمز والراية والمشعل والنور، وصاحب الكرسي والمقام.

اللوحة العاشرة :

تعلّق السراج في الدروب.

وأصبح الأفعوان رمزاً وقدوة.

كان زيته من خبث ومكيدة.

وكان ضياؤه غبشاً يتأرجح بلا لون.

وتجمع حوله الحاضرون في كل المحافل..

وكتبت على عنقه شعارات الولاء المزيف.

ومات الحلم الطاهر..

وارتفع الرمز الكذوب.....

كتب للمؤلف

١ ـ مصعب بن عمير (الداعية المجاهد).

٢ ـ أبو بصير (قمة في العزة الإسلامية)

٣ ـ ظاهرة الردة في المجتمع الإسلامي الأول.

٤ ـ ذات النطاقين (أسماء بنت أبي بكر)

٥ ـ نسيبة بنت كعب (أم عمارة)

٦ ـ المرأة المسلمة الداعية.

٧ ـ خالد بن سعيد بن العاص (الصحابي المجاهد)

٨ ـ في الأدب الإسلامي المعاصر.

٩ ـ ديوان هاشم الرفاعي (الأعمال الكاملة) جمع وتحقيق.

١٠ ـ من الشعر الإسلامي الحديث (مختارات من شعراء رابطة الأدب الإسلامي) ومن منشورات رابطة الأدب الإسلامي.

١١ ـ أدب الأطفال: أهدافه وسماته.

١٢ ـ الأدب الإسلامي: أصوله وسماته.

١٣ ـ في القصة الإسلامية المعاصرة.

١٤ ـ دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة (دراسة لعدد من قصص الدكتور نجيب الكيلاني)

١٥ ـ حاضنة رسول الله ﷺ (بركة بنت ثعلبة)

١٦ ـ الصحوة الإسلامية وآفاق التربية.

١٧ ـ تعليم المرأة في المملكة العربية السعودية خلال مئة عام (من منشورات الرئاسة العامة لتعليم البنات).

١٨ ـ عدد من الكتب المدرسية.

الفهرس

١ ـ كلمة ٥

٢ ـ همام وطبيب القلب ٧

٣ ـ توقفت الآلة الصغيرة ٤٣

٤ ـ مسافر ٧١

٥ ـ تماثيل من الشمع ٨٥

٦ ـ مباحثات رسمية ١٠٥

٧ ـ الشجر لا يموت إلا واقفاً ١١٩

٨ ـ من أوراق الدكتور سعد ١٣١

٩ ـ الإجازة والغربة ١٤٥

١٠ ـ الشيخ والزعيم ١٦٣

١١ ـ الحلم والثعبان ١٨٥

١٢ ـ مؤلفات الكاتب ١٩٨

١٣ ـ الفهرس ١٩٩